جامعة الملك عبد العزيز
معهد البحوث والاستشارات
كرسي المعلم محمد عوض بن لادن
للدراسات القرآنية



سلسة الرد على الشبهات

(٢)

الرد على شبهة العنف المنسوبة للنبي صلى الله عليه وسلم

إعـــداد

أ. د. حكمت بن بشير بن ياسين
أستاذ كرسي المعلم محمد عوض بن لادن للدراسات القرآنية

مقدمـــة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسول الله ومن والاه ، أما بعد :

فهذا البحث يتضمن الردَّ على شبهة نشر دعوة الإســـلام بـــالعنف والسيف المنسوبة إلى النبي ﷺ وذلك من خلال سلســـلة الـــرد علـــى الشبهات، ضمن أعمال " كرسي المعلم محمد عوض بن لادن للدراسات القرآنية "، ويبدأ هذا البحث بعرضٍ للشبهة، ثم الـــرد بالأدلـــة النقليـــة الصحيحة والعقلية الصريحة حسب الأقسام التالية:

القسم الأول : شهادات كبار قومهم من العلماء والساسة والفلاسفة.

القسم الثاني: الأحاديث النبوية الشريفة الصحيحة.

القسم الثالث : أقوال العلماء والحكّام والشعوب.

وفي ختام هذه المقدمة أتقدم أتقدم بالشكر الجزيل لرعاة الكرســـي، المهندس بكر بن محمد بن عوض بن لادن مدير عام ورئيس مجلس إدارة مجموعة ابن لادن السعودية، وسعادة المهندس يحيى بن محمد عوض بـــن لادن، رئيس مجلس الإدارة والمدير العام بالنيابة، ويرحم الله تعالى والـــد القائمين على الكرسي: المعلم محمد عوض بن لادن، ذلك الرجل الـــذي سُمي الكرسي باسمه، والشكر موصول لسعادة الأستاذ الـــدكتور عبـــد اللطيف خماخم مستشار مجموعة ابن لادن السعودية، ونائـــب الـــرئيس للتطوير الإداري على جهوده المباركة في عنايته وتقديره لهذا الكرســـي، كما أتقدم بالشكر الجزيل لمعالي مدير الجامعة الأستاذ الدكتور/ أسامة بن

صادق طيب، ولسعادة الدكتور/ أحمد بن حامد نقادي وكيل الجامعة للأعمال والإبداع المعرفي، ولسعادة الأستاذ الدكتور/ عبدالملك بن علي الجنيدي عميد معهد البحوث والاستشارات ووكيليه: سعادة الدكتور/ عبدالله بن أحمد الغامدي، وسعادة الدكتور/ هيثم بن حسن لنجاوي، وإلى أصحاب السعادة أعضاء لجنة أبحاث الكراسي العلمية بالجامعة، والشكر الجزيل إلى سعادة الدكتور/ محمد بن عبدالله الحلواني المشرف على الكرسي الذي بذل جهداً مشكوراً في مراجعة هذا البحث، وللشيخ الفاضل/ إبراهيم بن محمد أول الباحث المساعد الذي قام بالتنسيق الطباعي.

والله تعالى ولي التوفيق، ، ،

أ.د. حكمت بن بشير بن ياسين

أستاذ كرسي المعلم محمد عوض بن لادن للدراسات القرآنية

عرض الشبهة

لقد كان انتشار الإسلام في غاية الرفق والرحمة؛ إذ اشتمل على كل معاني الرحمة و الهداية لهذه البشرية، كما كان انتشاره في غاية الحكمة؛ لأن هذه الصفات السامية من الرحمة والرفق والحكمة هو من معالم هذا الدين. قال الله تعالى: ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ ﴾ [النحل: ١٢٥]، وكان النبي ﷺ ينشد العدل وسعادة الدارين، وقد يضطر إلى استخدام القوة، ولكن يتلوه ذلك الصلح والسلم وإبرام المعاهدات، من أجل نشر السلام بشتى الأساليب ومن هنا ظن البعض أن الإسلام انتشر بالعنف والسيف.

و هذه شبهة من الشبهات الخطيرة والإشاعات المثيرة التي انتشرت سابقاً ولاحقاً إلى عصرنا الحاضر، وانتشرت فى شتى وسائل الإعلام في أنحاء العالم، وهذا الافتراء من ثمرات الركام الذي خلفه بعض المستشرقين والمتعصبين من طراز (كيمون، وكولي، وجويليان، وغلوور، وبروكلمان، وفلهاوزن، وموير، ومرجوليوث)، وهذه بعض إشاعاتهم:

١- يقول المونيسنيور كولي في كتابه (البحث عن الدين الحق): برز في الشرق عدو جديد هو الإسلام الذي أُسس على القوة، وقام على أشد أنواع التعصب، ولقد وضع محمد السيف في أيدي الذين اتبعوه، وتساهل في أقدس قوانين الأخلاق، ثم سمح لأتباعه بالفجور والسلب، ووعد الذين يهلكون في القتال بالاستمتاع الدائم بالملذات في الجنة!!

٢- ويقول المسيو كيمون في كتابه "ميثولوجيا الإسلام": إن الديانة المحمدية جذام فشا بين الناس، وأخذ يفتك بهم فتكاً ذريعاً، بل هو مرض مروع وشلل عام وجنون ذهني يبعث الإنسان على الخمول والكسل، ولا يوقظه منهما إلا ليسفك الدماء!!.

٣- ويقول جويليان في كتابه "تاريخ فرنسا": إن محمداً مؤسس دين المسلمين قد أمر أتباعه أن يُخضعوا العالم، وأن يبدلوا جميع الأديان بدينه هو، ما أعظم الفرق بين هؤلاء الوثنيين والنصارى!! إن هؤلاء العرب قد فرضوا دينهم بالقوة، وقالوا للناس: أَسْلِموا أو موتوا، بينما أتباع المسيح أراحوا النفوس ببرهم وإحسانهم، ماذا كانت حال العالم لو أن العرب انتصروا علينا؟ إذن لكنا مسلمين كالجزائريين والمراكشيين(١)!!.

٤- ويتهم المستشرق البريطاني ميوير(٢) في كتابه "حياة محمد" النبيّ [ﷺ] بأنه كان يعامل اليهود بقسوة ويظلمهم(٣).

٥- قال المستشرق البريطاني مرجليوث في كتابه "محمد [ﷺ] وطلوع الإسلام": إن محمداً ﷺ فرض الإسلام على الجزيرة بالسيف والقوة(٤).

وقد تأثر بهذا القول المؤرخ الفرنسي كوستاف لوبون في كتابه "حضارة العرب"(٥).

---

(١) مناهج المستشرقين ص(١٢٧-١٢٨).

(٢) أحد كبار موظفي الحكومة البريطانية في الهند وكانت له صلة وطيدة مع الجمعيات الإرسالية العاملة في الهند، وقد كان حكماً في بعض المناظرات في اكر بالهند سنة ١٨٥٣م/١٢٦٩هـ. (ينظر الاهتمام بالسيرة النبوية باللغة الإنكليزية ص٢٤).

(٣) ينظر المصدر السابق ص(٢٨-٣٠).

(٤) ينظر: الاهتمام بالسيرة النبوية باللغة الإنكليزية ص (٤٦، ٣٩، ٣٤).

٦- وورد في معجم لاروس الفرنسي Larousse: الزعم بأن الرسول عليه الصلاة والسلام أمر أصحابه بنشر الإسلام بالعنف والقوة والسلاح والزعم أيضاً بأنه ﷺ قد طرد يهود بني قينقاع بسبب رفضهم اعتناق الإسلام، والزعم أيضاً بأن أهل المدينة إنما استجابوا لدعوة الإسلام بسبب كُرْههم وعداوتهم لأهل مكة(٦)!.

٧- وجاء في كتاب "تقدم التبشير العالمي" الذي ألّفه الدكتور غلوور ونشره في نيويورك سنة ١٩٦٠م، في نهاية الباب الرابع: إن سيف محمد والقرآن أشدُّ عدو، وأكبر معاند للحضارة والحرية والحق، ومن بين العوامل الهدَّامة التي اطلع عليها العالم إلى الآن! ثم ينتقد غلوور شخصية الرسول ﷺ فيقول: كان محمد حاكماً مطلقاً، وكان يعتقد أن من حق الملك على الشعب أن يتبع هواه ويعمل ما يشاء، وكان مجبولاً على هذه الفكرة، فقد كان عازماً على أن يقطع عنق كل من لا يوافقه في هواه. أما جيشه فكان يتعطش للتهديد والتغلب، وقد أرشدهم رسولهم أن يقتلوا كل من يرفض اتباعهم ويبعد عن طريقهم(٧)!.

٨- ويكتب المستشرق الألماني بروكلمان: قوّى فوزُ بدر من نفوذ النبي، فلم ينقضِ شهر على بدر حتى وجّه النبيّ رجاله إلى بني قينقاع لِقَتْلِهم في الظاهر رجلاً مسلماً كان قد قتل رجلاً يهودياً إثر خلاف جرى بينهما، فاضطرهم إلى الإسلام والخروج من المدينة.

---

(٥) ينظر : آراء المستشرقين حول القرآن (١/١٥٤).

(٦) ينظر: الاهتمام بالسيرة النبوية باللغة الفرنسية، ص(٤٤).

(٧) مناهج المستشرقين، ص(١٢٨).

٩- ويقول عميد قسم الدراسات الإسلامية بجامعة أدنبرا سابقاً مونتكمري وات: وقد انتهز محمد فورة الحماس للتخلص من بعض جوانب الضعف، فهاجم قبيلة بني قينقاع اليهودية بعد أن أدَّت خصومة تافهة لموت مسلم(٨).

١٠- ويقول المستشرق الألماني فلهاوزن: لم يَبْقَ الإسلامُ على تسامحه بعد بدر؛ بل شرع في الأخذ بسياسة إرهاب في داخل المدينة، وكانت إثارة مشكلة المنافقين علامة على ذلك التحول.. أما اليهود فقد حاول أن يظهرهم بمظهر المعتدين الناكثين للعهد، وفي غضون سنوات قليلة أخرج كل الجماعات أو قضى عليها في الواحات المحيطة بالمدينة، حيث كانوا جماعات متماسكة كالقبائل العربية، وقد التمس لذلك أسباباً واهية(٩).

١١- ويرى إدوارد جيبون ت ١٧٩٤ edward gibbon أن النبي ﷺ استغل الاضطراب العارض في المدينة، ليجتمع ببني قينقاع ويخيرهم بين اعتناق دينه أو الحرب(١٠).

١٢- وألف كريك ونن كتابا بعنوان "نبي الخراب " Prophet Of Doom وصف فيه الرسول ﷺ بأنه قاطع طريق.

---

(٨) History of the Islamic Peoples, p.24.، نقلاً عن الاستشراق في السيرة النبوية، عبد الله محمد الأمين النعيم، ص(١٩٦).

(٩) انظر مناهج المستشرقين ص (١٣٧).

(١٠) The Saracens : Their hisrory and The Rise and Fall Of Their Empir. P.35 نقلا عن كتاب النبي ﷺ ويهود المدينة ص ١٤.

١٣- وترتب على هذه الأفكار القيام بإنتاج بعض الأفلام المسمومة كفلم " فتنة " الذي يظهر النبي ﷺ مظهراً سيئاً يشوه شخصيته العظيمة ويطعن في رسالته ﷺ [١١].

---

(١١) ينظر نصرة الله نبيه محمداً ﷺ في القرآن الكريم ص ٣٠٩- ٣١١.

الرد على الشبهة

إن هذا التصور يكاد يأخذ برقاب الكثير من المستشـــرقين، ويتـــرك بصماته الواضحة على مناهجهم في التعامل مع سيرة نـــبي الرحمـــة ﷺ، وهذا التصور أخذه السابق عن اللاحق.

وذلك لأنهم ردّدوا ما ورد من افتراءات في دائرة المعارف الإســـلامية التي نشرت باللغة الإنكليزية على يد المستشرقين القدامى، ثُم تُرجمـــت باللغات الأخرى على يد المستشرقين القدامى ومَنْ بعدهم، فتأثروا بتلك الافتراءات التي تعود إلى الترجمات المشوهة للقرآن الكريم والتي عكـــف عليها المستشرقون والمنصّرون.

ومن الذين شاركوا في وضع دائرة المعارف الإسلامية باللغة الإنكليزية سادة الاستشراق من طراز جولد سيهر وجب (H.AR.gibb) وكريمـــر وليفي بروفنسال (E.Levy-Provinsal)[١٢].

وكان الكاتب الرئيس لمادة "محمد" هو وليم مونتكمري وات أســـتاذ الدراسات العربية والإسلامية، بجامعة أدنـــبره بـــين عـــامي ١٩٦٤-١٩٧٩م[١٣].

وقد انطلقت فكرة هذه الموســـوعة مـــن المـــؤتمر التاســـع العـــالمي للمستشرقين باقتراح من رئيس لجنة الدراسات السامية العامة المستشرق روبار تسون سميث[١٤].

---

(١٢) مؤتمرات المستشرقين العالمية ص(٥٧٧-٥٨٢).

(١٣) السيرة النبوية في دائرة المعارف البريطانية ص(١١).

إضافة إلى ما تقدم فإن المؤتمرات الاستشراقية العالمية كان لهـــا الأثـــر الكبير في تنظير الأفكار، وتنظيم الأحبار، وجمع الأخبار والافتراء علـــى النبي المختارﷺ؛ لخدمة أهدافها الاستعمارية والتبشيرية، ولقد شغل الدين الإسلامي حيزاً هاماً في مؤتمرات المستشرقين العالمية، إذ طُرِقَتْ دراستُه في واحد وعشرين مؤتمراً [١٥]، وبلغـــت المســـاهمات الإســـلامية (٦٥١) موضوعاً[١٦].

وقبل هذه الترجمات ما كتبه فولتير الفرنسي من رواية مسرحية عـــن نبي الرحمة ﷺ وما كتبه يولوجيوس في القرن الثالث الهجري إذ صـــنف السيرة النبوية محرفة[١٧].

ونستنتج مما تقدم أن هذه الإشاعة التي ينقلها بعض المعاصرين هـــي تكرار جيل عن جيل.

وهذه الأفكار تَفشَّت في أذهان طلاب المدارس والجامعات في أوربـــا وأمريكا وأستراليا من خلال المقررات الدراسية، ولم يقف زحفها عنـــد المدارس والجامعات بل اقتحمت أروقة السياسة، وأثّرت في أرباب القرار في بعض تلك البلدان، فقد خلطوا جميعاً بين الجهاد والعنف والســـيف، ونسوا عشرات الألوف من الذين دخلوا في دين الله تعالى أفواجاً من هذه البلدان! هل اعتنقوا الإسلام بالقوة أو بالقناعة التامة؟

---

(١٤) مؤتمرات المستشرقين العالمية ص(٥٧٧).

(١٥) ينظر المصدر السابق ص(٢٣٥).

(١٦) المصدر السابق ص(٢٦٥).

(١٧) مناهج المستشرقين ص (١٣٧).

يقول الأستاذ عباس محمود العقاد: لا يكاد يخلو مقرر دراسي غـــربي عن الإسلام من تناول موضوع الجهاد، لأن مفاهيم الحـــرب المقدســـة والجهاد؛ بل ربما الإرهاب قد ارتبط ارتباطاً قوياً في الـــذاكرة الغربيـــة بالإسلام، حتى عَدُّوها جزءاً لا يتجزأ عنه، وفهموا أن شريعة الســـيف وشريعة الإسلام شيء واحد(١٨)!.

وقد قام بعض العلماء الأفاضل بنقد المقررات الدراسية، ومنها نقـــد الدكتورعبد اللطيف محمود محمد، فقد قام بتحليل علمي لمضمون كتاب "من أجل معرفة العبادة" وهو مقرر على طـــلاب الصـــف العاشـــر في المدارس الأسترالية ضمن التربية الدينية، وفيه اتهام المســـلمين بممارســـة العنف في نشر الإسلام من خلال حديثه عن فتح مكة ونصه: وفي ســـنة ٦٣٠م قام محمد وأتباعه بالهجوم والاستيلاء على مكة (١٩).

وهذا خبر عجيب، فإن فتح مكة المكرمة كان غاية في التسامح والعفو كما قال النبي ﷺ: "اذهبوا فأنتم الطلقاء"(٢٠).

وهكذا الأمر في مقررات الدراسة في أمريكا ففي الصـــف الســـادس الابتدائي يدرس كتاب "قصة عالمنـــا" Our World's Story وفيـــه أن

---

(١٨) ينظر ما يقال عن الإسلام ص(١٠٩)، نقلاً عن الإسلام في المناهج الغربية المعاصرة ص٣٨١.

(١٩) تحليل مضمون لكتاب (من أجل معرفة العبادة والحب) ص١٣، بحث مقدم لندوة بناء المناهج: الأسس والمنطلقات بكلية التربية- جامعة الملك سعود- الرياض سنة ١٤٢٤هـ.

(٢٠) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى (١١١/٩).

انتشار الإسلام في آفاق العالم القديم نتاج للعنف واستخدام السيف، وأن نبي الإسلام قد أجبر الناس على اعتناق الإسلام[٢١].

كما قامت الأستاذة مارلين نصرالباحثة بمركز دراسات الوحدة العربية ببيروت، بتحليل عينات من الكتب الدراسية الفرنسية في المرحلتين الابتدائية والثانوية، لاحظت فيه استشراء النظرة الدونية والعدائية إلى الإسلام والعرب والمسلمين في المقررات الدراسية القديمة التي تزدري أتباع هذا الدين، وتَصِفُهم بالبداوة والسذاجة والميل إلى القسوة، والشر.

وقد شارك الدكتور مصطفى الحلوجي مع آخرين في عام ٢٠٠٢م في إقامة ندوة بعنوان: "صورة الإسلام الملطخة في كتب مادة التاريخ بالمدارس الفرنسية"، تمخض عن اعتراف وزارة التعليم الفرنسية بوجود أخطاء في عرض هذه الكتب لتاريخ الإسلام، غير أنها برأت نفسها من المسؤولية قائلة إن حدود عملها ينتهي عند تخطيط المناهج، أما تفاصيل المادة فهي مهمة المؤلفين ودور النشر والمدارس التي تقبل بتدريس تلك الكتب[٢٢].

إنه عذر خطير لا يبرئ ساحة أهل القرار والمسؤولين الكبار.

وهذا الافتراء والتضليل قد اقتحم أروقة الحكومة الأمريكية وأثّر فيها وفي قرارها، وقد تولّى كبر ذلك بعض المقربين إليها من طراز برنارد

(٢١) ينظر الإسلام في المناهج الغربية المعاصرة ص(١٠١).

(٢٢) ينظر المصدر السابق ص(١٥٣و١٥٧).

لويس[٢٣]، مؤلف كتاب "تمرد الإسلام"! ود.دانيال بايبس[٢٤]، مؤلف كتاب "وجهة النظر الغربية إزاء الإسلام والتطرف" وهما من أخطر الخبراء – المقربين من الساسة الأمريكان أرباب القرار – الذين انبروا لإشعال الفتن بين الحكومة الأمريكية والمسلمين، وأكبر دليل على ذلك إنتاجهم العلمي المذكور ضمن ترجمتيهما كما في الحاشية.

وبما أن هذه الشبهة انتشرت على ألسنة المذكورين وغيرهم، فإن الأمر يحتاج إلى اهتمام عظيم وتحكيم حكيم، وقد جعلت الرد من ثلاثة أقسام.

---

(٢٣) حاصل على شهادة الدكتوراه من جامعة لندن عام ١٩٣٩م، والتحق بجامعة برنستون منذ عام ١٩٧٤م، وهو الآن الأستاذ الفخري للدراسات الشرقية في جامعة برنستون، والأستاذ الزائر في جامعة تل أبيب، وأحد المستشارين الكبار في البيت الأبيض في ميدان صياغة سياستها تجاه العالم الإسلامي.

(٢٤) حاصل على شهادة الدكتوراه عام ١٩٧٨م، من جامعة هارفارد في التاريخ، رحل بعدها للدراسة خارج الولايات المتحدة مدة ست سنوات، أمضى منها ثلاث سنوات في القاهرة. وقد مارس مهمة التدريس في جامعات مختلفة منها: جامعة شيكاغو وجامعة هارفارد وجامعة القاهرة وكلية الحرب الأمريكية. وقد تبوأ أكثر من منصب رفيع في مقر الرئاسة الأمريكية، وعمل مديراً لمركز البحوث السياسية الخارجية في المدة من عام ١٩٨٦م ولغاية عام ١٩٩٣م. ويعمل الآن رئيساً لتحرير مجلة منبر الشرق الأوسط Middle East Forum.

القسم الأول : شهادات كبار قومهم من العلماء والساسة والفلاسفة

أولاً: إن هذه المقالة رفضها المسيحيون المعتدلون حتى من الكاثوليك، وقد تبرأ منها جمع غفير من النصارى ومن المذهب الكاثوليكي، إذ أخبرني المستشرق الألماني أ.د شتيفان فيلد - وهو كاثوليكي المذهب - أن الكاثوليك الألمان استاؤوا من هذه الإشاعة..وذكر اعتراضهم على تلك المقالة عن بعض العلماء وطلاب العلم، واستشهد بقول عالم اللاهوت Kung: السلام في العالم مستحيل بدون السلام بين الأديان[٢٥].

وقال الرئيس الأمريكي السابق "بيل كلينتون" في تصريحه للبرنامج الحواري الشهير "لاري كينج لايف" على الشبكة الأمريكية: إن كل شخص منا يدلي بهذه التصريحات يزيد من صعوبة مهمة المعتدلين في العالم الإسلامي.

وكذلك استنكر الرئيس الزيمبابوي وهو كاثوليكي حسب ما أخبرني مفتي زيمبابوي.

وقد سمعت استنكار بعض القسيسين من الكنيسة الشرقية من سوريا ولبنان، وذلك في برنامج استغرق (٥٥) دقيقة في إذاعة BBC يوم الجمعة مساء بتاريخ ٢٩ من شعبان ١٤٢٧هـ الموافق ٢٢/١١/٢٠٠٦م. كما استنكر أيضاً البابا شنودة في مصر.

---

(٢٥) كان هذا اللقاء في المدينة المنورة صباح يوم الخميس (١٨/١٠/١٤٢٧هـ) في فندق الميرديان عندما شارك في ندوة القرآن الكريم في الدراسات الاستشراقية.

ثانياً: إن هذه الإشاعات تخالف قرارات مجمع الفاتيكان الثاني سنة ١٩٦٥م، التي تصحح تلك الأفكار عن طريق أرباب الحوار، الذين اعترفوا بأن القرآن مصدرٌ دينيٌ صحيح؛ بل هو المصدر الأساس في الإسلام، كما اعترفوا أن محمداً سلك طريق الأنبياء، وأوضحوا القضايا الكبرى المتفق عليها بين المسلمين والمسيحيين، فقد صدر عن مجلس البحث في القيم والفلسفة التابع للجامعة الكاثوليكية في واشنطن سنة ٢٠٠٢م كتاب بعنوان: "الحوار المسيحي الإسلامي قراءة في كتاب: التصورات اللاهوتية المسيحية عن المسلمين منذ مجلس الفاتيكان الثاني" (١٩٦٢-١٩٦٤م) تأليف محمود إيدن[٢٦]، وجاء فيه ما يلي:

ويبدو الاهتمام بهذه الحقبة جلياً إذا عرفنا أن هذه المرحلة الزمنية في تاريخ الكنيسة الكاثوليكية هي لحظة البداية لمحاولة الاقتراب من الآخر. فقد أصدر مكتب التعاليم في الكنيسة الكاثوليكية (the magisteriun) وثيقة رسمية تسبل فيها الكنيسة على الأديان الأخرى صفة اعتبارية، فقد صرَّحت (أن هذه الأديان معتبرة وينبغي للكنيسة احترامها، كما ينبغي للمسيحيين التحاور معها).

وفي القرن العشرين قام مفكرون مسيحيون بارزون بالبحث عن تفسير إيجابي أرحب للقاعدة الكاثوليكية: (لا خلاص خارج الكنيسة)

---

(٢٦) Aydin Mahmut. Modern Western Christian Theological Understandings of Muslims Since the Second Vatican Council, Washington, DC: The Council for Research in Values and Philosophy, 2002.

لتطوير رؤية كاثوليكية مكينة وأكثر إيجابية للأديان الأخرى... وبـــدوا وكأن لهم تأثيراً غير مباشر في تغيير الرؤية الكنسية للآخر.

من هؤلاء لويس ماسينيون وكارل راهنر، فالأول كان عالماً فرنسياً متخصصاً بالدين الإسلامي والتصوف، أما الثـــاني فكـــان متخصصـــاً بالعقائد الدينية عموماً، وكلاهما قد أسهم برفع الرصيد المعرفي للفهـــم المسيحي للإسلام، وكلاهما أثَّر بوضوح في مجلـــس تعـــاليم الكنيســـة الرومانية الكاثوليكية.

ويؤلف المجلس الفاتيكاني الثاني (١٩٦٢م) الذي افتتحه البابا جـــون الثالث والعشرون (XXIII John) رسمياً لحظة تاريخية في علاقة المسيحية بالأديان الأخرى، فالمجلس قد أصدر وثيقتين مهمتين في هذا الســـياق، الأولى هي: (الإعلان عن علاقة الكنيسة بالأديان غير المسيحية Nostra Aetate) ، والثانية: (الدستور العقدي للكنيسة (Lumen Gentium)... فالوثيقتان مثلاً تعلنان أن المسلمين يؤمنون بخالق السموات والأرض الذي كلّم الإنسان، إنهم يؤمنون معنا بالخالق الرحيم وباليوم الآخـــر، الـــذي سيقضي فيه الإله الحي القيوم الرحيم بين بني الإنسان...

وفي المرحلة التالية (١٩٧٣-١٩٨٠م) في عهد الكاردينال بيجنيدولي انتقل المجلس الكاثوليكي من مرحلة الإعـــداد والدراســـة إلى المباشـــرة والممارسة... وكأن الكنيسة الكاثوليكية خرجت عن صمتها السلبي فيما يتعلق بمحمد عليه السلام، فمثلاً الأب لانجفراي طلب مغفرة المسلمين لما صدر عن المسيحيين من الإساءات الجارحة لشخص محمد ﷺ. يضـــاف إلى هذه النقطة الإيجابية نبذ الكنيسة للتنصير الإجباري الذي مورس على

المسلمين في الماضي، والدعوة إلى احترام الحرية الدينية لجميع الأفـــراد... وقد أعلن البطريرك تيموثي في بغداد: (إن محمداً سلك طريق الأنبيـــاء، وذلك لأنه تناغم بالتأكيد مع أنموذجهم، إلا أنه لم يتطابق تطابقاً كاملاً معهم في الإله الذي نُبِّئوا عنه)[٢٧].

وقد أشار المفكر الروسي د.أليسكي جورافيسكيس اعتراف المجمـــع المسكوني الكاثوليكي وأضاف قوله: لهذا شُبِّهت المطبوعات الكاثوليكية التغيير الحاصل في موقف الكنيسة تجـــاه الإســـلام بـــــ (الانقـــلاب الكوبرنيكي)[٢٨].

وكذلك نرى رئيس وزراء إسبانيا خوسي لويس سوباطير يـــدعو إلى تحالف الحضارات[٢٩].

ويقول الطبيب الفرنسي موريس بوكاي: ونعيد إلى الأذهان أنه بعد المؤتمر المسكوني الثاني للفاتيكان أجرى البابا بولس الســـادس انفتاحـــاً مدهشاً على سائر الأديان، وكان ذلك في الوقت الذي كانت (أمانـــة

---

(٢٧) نقلاً عن بحث (الحوار المسيحي الإسلامي استناداً إلى تصورات المسيحية عن المسلمين) للباحثة دعاء محمود فينو، والمنشور في مجلة إسلامية المعرفة، العدد (٤٤)، ربيع (١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م ص١٥٣-١٧٦). وما قاله البطريك حق سوى الجملة الأخيرة فإن الأنبياء متفقون على إله واحد.

(٢٨) الإسلام والمسيحية د.إليسكي جورافيسكي، كتاب رقم (٢١٥) من سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، (نوفمبر١٩٩٦م، ص١١٧).

(٢٩) الأبعاد السياسية للحملات العدائية أ.د.أحمد الريسوني ص(٨)، بحث مقدم لمؤتمر مكة المكرمة السابع لنصرة نبي الأُمَّة ﷺ الذي أقامته رابطة العالم الإسلامي.

الفاتيكان لغير النصارى) قد نشرت فيه (توجيهاته للنصارى والمسلمين) وقالت: (إنه يجب القيام تدريجياً بتغيير وجهة نظر إخواننا النصـــارى)، و(اعترف الغرب النصراني بما اقترفه من مظالم تجاه المسلمين). ومن هذه المظالم التي يعقبها مظالم أخرى جهلهم بالقواعد الموضـــحة في القـــرآن الكريم الذي كان وما زال يطيب لهم منذ قرون اعتباره – في ســـخرية- كإعادة نشر لكتبهم المقدسة، وكان البابا بولس السادس أول من قـــام بتنفيذ هذه التوصيات حينما أصرَّ في خطاب موجه للملك فيصل ملـــك المملكة العربية السعودية –رحمه الله- بأن لديه (إيماناً عميقاً في توحيـــد العالمين اللَّذين يعبدان إلهاً واحداً).

كذلك نشرت جريدة "ليموند" في عددها الصادر٢٥إبريل١٩٧٤م، هذه الفقرة الخاصة من الخطاب الـــذي نقلـــه الكردينـــال بنييـــدولي (pignedoli) إلى الملك فيصل - رحمه الله- [٣٠].

ولو نظر أرباب هذه الإشاعة في كتب أهل ملتهم وأهل بلدهم الـــتي سطرت فيها قبسات من حضارة الإسلام لرأوا رحمة هذا الـــنبي الـــذي وضع نواة تلك الحضارة التي كانت مثار إعجاب الشرق والغرب، ومن هؤلاء الكتَّاب:

١- المستشرق الألماني آدم متز في كتابه "الحضـــارة الإســـلامية في القرن الرابع الهجري أو عصر النهضة في الإسلام" وقد كتـــب باللغة الألمانية ثم ترجم إلى الإنكليزية ثم العربية.

(٣٠) القرآن الكريم والعلم العصري ص(١٨-١٩).

٢- كتاب "فون كريمر" بعنوان (Gulturge schiche des Orients unter den Chalfen).

٣- كتاب "تاريخ الحضارة الإسلامية" لبارتولد.

٤- كتاب "حضارة العـــرب في الأنـــدلس" للمستشـــرق ليفـــي بروفنسال.

٥- كتاب "حضارة العرب" لجوستاف لوبون[٣١].

٦- المستشرق الألماني جريف إيرون(Erwin Graf) ورســـالته في الدكتوراه بعنوان: "تطور الفقه الإسلامي"[٣٢].

٧- المستشرق الألماني د.ج كامبفاير (G.Kampffimeyer) رئـــيس تحرير مجلة "عالم الإسلام"[٣٣].

٨- مراد هوفمان مؤلف "رحلة إلى مكة" مترجم إلى اللغة العربية.

٩- رودي بارت(Rudi Part) وهو ألماني معاصر له كتاب عن النبي محمد ﷺ وله أيضاً: الدراسات العربية والإسلامية في الجامعات الألمانية[٣٤].

ومن ردود علماء الغرب والشرق على شبهة العنف وشهادتهم علـــى رحمة النبي ﷺ مايلي:

---

(٣١) نقلاً عن كتاب آدم متز (الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري) ص(١٥).

(٣٢) ينظر موسوعة المستشرقين ص(١١٣).

(٣٣) ينظر المستشرقون (٤١٣/٢).

(٣٤) ينظر الدراسات العربية والإسلامية في الجامعات الألمانية ص(١٥).

١- استنكر الدكتور الياباني أوتسوكا Otsuka رئيس معهد طوكيو للدراسات الآسيوية والإفريقية وذكر أن هذا افتراء وجهل بالإسلام ونبي الإسلام محمد ﷺ[٣٥].

٢- ويشير درمنغم إلى هذه المسألة فيقول: من المؤسف حقاً أن غالى بعض هؤلاء المتخصصين من أمثال: موير، ومرغوليوث، ونلدكه، وشبرنجر، ودوزي، وكيتاني، ومارسين، وغريم، وغولدزيهر، وغودفروا وغيرهم في النقد أحياناً، فلم تزل كتبهم عامل هدم على الخصوص، ولا تزال النتائج التي انتهى إليها المستشرقون سلبية ناقصة، ولن تقوم سيرة على نفي، وليس من مقاصد كتابي أن يقوم على سلسلة من المجادلات المتناقضة.. ومن دواعي الأسف أن كان الأب لامانس -الذي هو أفضل المستشرقين المعاصرين- من أشدهم تعصباً، وأنه شوه كتبه القيمة الدقيقة وأفسدها بكرهه للإسلام ونبي الإسلام[٣٦].

٣- وقالت كارين آرمسترونج k.Armstrong : وماتزال آثار الوهم القديم قائمة حتى يومنا هذا، إذ لايزال من الشائع عند أبناء الغرب أن يسلموا دون نقاش بأن محمدا ليس سوى رجل استغل الدين في تحقيق الفتوحات وسيادة العالم، وأن الإسلام دين عنف يعتمد على السيف[٣٧].

---

(٣٥) نشر المقال في الصحيفة المشهورة ماينتشي Mainchi اليابانية بتاريخ (١٦/١٠/٢٠٠٦م ص٩)، وقد أتحفني بترجمته الأستاذ قتيبة بن صالح السامرائي إمام مسجد التوحيد في طوكيو.

(٣٦) المستشرقون والسيرة النبوية، ص(١٣٠-١٣١).

(٣٧) سيرة النبي ﷺ ص ٣٧، نقلا عن كتاب النبي ﷺ ويهود المدينة ص٢٠.

٤- ويرفض المستشرق البريطاني أرنولد الخطأ الآخر الذي يـــرى أن محمداً قد تحول إلى القوة بمجرد أن واتته الظروف، وهو رأي قد صـــرح به نقلاً عن فلهاوزن بعض الباحثين ولا سيما ميور لدى حديثه عن غزوة بني قريظة[٣٨].

٥- يقول مونتكمري وات عميد قسم الدراسات الإسلامية بجامعـــة أدنبرا سابقاً في كتابه "محمد بمكة": منذ محاضرة كارلايل عن محمـــد في كتابه "الأبطال وعبادة الأبطال" أدرك الغرب أن الاعتقاد في إخـــلاص محمد تسنده حجة قوية، فاستعداده لأن يتحمل الأذى في سبيل معتقداته، والمستوى الأخلاقي الرفيع الذي اتصف به الرجال الـــذين آمنـــوا بـــه واتخذوه إماماً، وعظمة المنجزات التي انتهى إليها... إن الكُتَّاب الغربيين يجنحون في معظم الأحيان إلى تصديق أسوأ ما يقال عن محمد، وحيثمـــا كان التفسير السيئ لعمل من أعماله تفسيراً مقبولاً في الظـــاهر عـــدُّوه كذلك في الواقع، ولذلك يجب علينا ألاَّ نكتفي بسُنَّة محمد إلى الأمانـــة واستقامة الغاية إذا كنا نريد ولو قليلاً من فهمه.

وإذا كنا نريد تصحيح الأخطاء التي ورثناها من الماضي فينبغـــي أن نستمسك عند كل قضية بالاعتقاد بإخلاصه حتى يتبين لنا العكس بحجة قاطعة، ينبغي أن نتذكر أن الحجة القاطعة مطلب أشدّ من الحجة الـــتي تبدو في الظاهر معقولة، وأنها لا تنال في مثل هذه الأحوال إلا بعسر[٣٩].

---

(٣٨) الدعوة إلى الإسلام لأرنولد ص (٥٤).

(٣٩) محمد في مكة ص(٥٢).

وقال أيضاً: وإن كانت بعض أراء العلماء الغربيين غير معقولة عند المسلمين، فذلك لأن العلماء الغربيين لم يكونوا دائما مخلصين لمبادئهم العلمية وأن آراءَ هم يجب إعادة النظر فيها من وجهة النظر التاريخية الدقيقة[٤٠].

٦- ويقول المؤرخ الفرنسي كوستاف لوبون: والإسلام من أكثر الديانات ملاءمة لمناخ العالم واكتشافاته، ومن أعظمها تهذيباً للنفوس ودعوة إلى العدل والإحسان والتسامح. وتأثير دين محمد [ﷺ] في النفوس أعظم تأثيراً من أي دين آخر، ولقد دخلت دولة العرب في التاريخ، ولكن الدين الذي كان سبباً في قيامها لا يزال ينتشر، والسهولة التي انتشرت بها شريعة الإسلام في العالم شاملة للنظر.. وقد بلغ عدد أتباع النبي الملايين الكثيرة في البلاد التي دخلها تجار العرب بقصد التجارة لا بقصد الفتح، كبعض أجزاء الصين وأفريقيا وآسيا الوسطى وروسيا، وقد اعتنقت هذه الملايين الإسلام طوعاً لا كرهاً، ولم نسمع أنه أرسل جيشاً من أولئك التجار المبشرين لمساعدتهم.

وتحدث المؤرخ الفرنسي كوستاف لوبون – عن عدل الفتح الإسلامي، فقال: إن العرب وهم أعقل من الكثيرين من أقطاب السياسة في الزمن الحديث، كانوا يعلمون جيداً أن النظم الواحدة لا تلائم شعوب الأرض قاطبة، وكان من سياستهم أن يتركوا الأُمم حُرَّة في المحافظة على قوانينها وعاداتها ومعتقداتها[٤١].

---

(٤٠) المصدر السابق ص(٦).

(٤١) حضارة العرب لكوستاف لوبون ص(١٢٥-١٢٩).

٧- يقول المستشرق البريطاني سير توماس أرنولد عن الإسلام:

إنه الدين الذي يسمو فيه نشر الحق وهداية الكفار إلى واجب مقدس على يد مؤسس الدين أو خلفائه من بعده... إنها روح الحق في قلـــوب المؤمنين التي تستقر حتى تتجلى في التفكر والقول والعمل، ولا تقنع حتى تؤدي رسالتها إلى كل نفس إنسانية، وتعترف أفراد الجماعة الإنسانية بما تعتقد أنه الحق.

وإن الذي دفع المسلمين إلى أن يحملوا رســالة الإســلام معهـــم إلى شعوب البلاد التي دخلوها وجعلهم ينشدون لدينهم بحق مكانـــاً بـــين الأديان، لهي سماحة من ذلك النوع، من أجل صدق عقيدهم[٤٢].

٨- يقول الدكتور الياباني أوتشي ياما Uchiyama أستاذ قسم دراسة المناطق الإسلامية في جامعة طوكيو ما خلاصته: يجب على حرية التعبير والنقد أن لا تمسّ أو تعتدي على المعتقدات الدينية والإيمانية للآخــرين، ومن واجب الجميع الفصل بين الإرهاب وحقيقة الإسلام. إن تمثيل محمد نبي الإسلام على أنه زعيم إرهابي من خلال رسوم كاريكاتوريــة لهــو تجاوز كبير بكل المقاييس. إن هناك الكثير من الدول الإســلامية الــتي يستحيل فيها فصل الدين عن السياسة أو التعليم. إن على الدول الغربية التي باشرت في فصل الدين عن السياسة منذ بدايات القرن التاسع عشر

---

(٤٢) الدعوة إلى الإسلام، ص (١٧).

والتي تتغنى بشعارات (التعايش مع الثقافات الأخرى) أن تراجع نفسها وتندم على أعمالها هذه[٤٣]...

٩- يقول الأستاذ الفرنسي مكسيم رودنسن: بظهور عدد من المؤرخين الأوروبيين المستنيرين في القرن الثامن عشر بدأت تتكامل معالم صورة هي صورة محمد [ﷺ] الحاكم المتسامح والحكيم والمشرع[٤٤]. وأستطيع أن أقول بكل قوة أنه لا يوجد مسلم جديد واحد لا يحمل في نفسه العرفان بالجميل لسيدنا محمد [ﷺ]، لما غمره به من حب وعون وهداية وإلهام فهو القدوة الطيبة التي أرسلها الله رحمة لنا وحباً بنا حتى نقتفي أثره[٤٥].

١٠- يقول المستشرق الأمريكي واشنجتون إيرفنج: كانت تصرفات الرسول [ﷺ] في أعقاب فتح مكة تدل على أنه نبي مرسل لا على أنه قائد مظفر، فقد أبدى رحمة وشفقة على مواطنيه برغم أنه أصبح في مركز قوي، ولكنه توج نجاحه وانتصاره بالرحمة والعفو[٤٦].

١١- تقول المستشرقة الإيطالية لورافيشيا فاغليري: كان محمد [ﷺ] المتمسك دائماً بالمبادئ الإلهية، شديد التسامح، وبخاصة نحو أتباع الأديان الموحدة. لقد عرف كيف يتذرع بالصبر مع الوثنيين، مصطنعاً الأناة

---

(٤٣) نُشر المقال في جريدة ماينتشي Mainchi اليابانية بتاريخ (٢٠٠٦/٢/٤م ص٩)، وترجمه الأستاذ قتيبة بن صالح السامرائي، إمام مسجد التوحيد في طوكيو.

(٤٤) تراث الإسلام (تصنيف شاخت وبوزث) (١/٦٧-٦٨).

(٤٥) رجال ونساء أسلموا (٤/٢٧-٢٨).

(٤٦) حياة محمد، ص(٢٣٣).

دائماً اعتقاداً منه بأن الزمن سوف يتم عمله الهادف إلى هدايتهم وإخراجهم من الظلام إلى النور[٤٧].

١٢- يقول اللورد هيدلي: محمد المثل الكامل، إننا في احتياج إلى نموذج كامل يفي بحاجاتنا في خطوات الحياة، حياة محمد كمرآة أمامنا تعكس علينا التعقل الراقي والسخاء والكرم والشجاعة والإقدام والصبر والحلم والوداعة والعفو، وباقي الأخلاق الجوهرية التي تكون الإنسانية[٤٨].

١٣- قد ردَّ المؤرخ البريطاني أرنولد توينبي على افتراء جويليان الوارد برقم (٣) بقوله: لم يكن الاختيار بين الإسلام أو القتل، ولكن بين الإسلام والحرية، وتلك سياسة مستنيرة أجمعت الآراء على امتداحها[٤٩].

١٤- قال مهاتما غاندي : أردت أن أعرف صفات الرجل الذي يملك بدون نزاع قلوب ملايين البشر.. لقد أصبحت مقتنعاً كل الاقتناع أن السيف لم يكن الوسيلة التي من خلالها اكتسب الإسلام مكانته؛ بل كان ذلك من خلال بساطة الرسول مع دقته وصدقه في الوعود، وتفانيه وإخلاصه لأصدقائه وأتباعه، وشجاعته مع ثقته المطلقة في ربه وفي

---

(٤٧) دفاع عن الإسلام، ص(٧٣).

(٤٨) أوروبا والإسلام ص(٥٣).

(٤٩) مختصر دراسة التاريخ (٢/٣٥٥)، نقلاً عن قالوا عن الإسلام ص(٢٧٨).

رسالته، هذه الصفات هي التي مهدت الطريق، وتخطت المصاعب وليس السيف [٥٠].

١٥- قال إدوارد مونته : عرف محمد بخلوص النية والملاطفة وإنصافه في الحكم، ونزاهة التعبير عن الفكر والتحقق، وبالجملة كان محمد أزكى وأدين وأرحم عرب عصره، وأشدهم حفاظاً على الزمام فقد وجههم إلى حياة لم يحلموا بها من قبل، وأسس لهم دولة زمنية ودينية لاتزال إلى اليوم[٥١].

إن هذه الشهادات العلمية والاعترافات الصريحة لم تأت جزافاً وإنما اعتمدت على الأحاديث النبوية الشريفة الصحيحة والسيرة النبوية المطهرة الحافلة بالتسامح والرفق، تناقلها أهل الأديان والملل عن آبائهم وأجدادهم من كتبهم وأخبارهم، ومن تلك الأحاديث المجيدة والأخلاق العالية الحميدة مايأتي في القسم الثاني.

القسم الثاني : الأحاديث النبوية الشريفة الصحيحة

ماذكره المستشرقون من أن النبي ﷺ ظلم اليهود، وقسا عليهم بخروجهم من المدينة بسبب قتل رجل من المسلمين -على زعمهم-.

---

(٥٠) ينظر : مهاتما غاندي في حديث لجريدة " ينج إنديا " وتكلم فيه عن صفات سيدنا محمد ﷺ، موقع /٢٩ k، www.unem net/Arabic/index.php ٢٠٠٧/٣/٣٠م نقلا عن كتاب نصرة الله نبيه محمد ﷺ في القرآن الكريم ص ٣٢٥.

(٥١) ينظر موقع www.sohbanet.com ٤/ ٥-٢-٢٠٠٩ م الساعة : ٠٦:٤٠ – k١١١ –: إسلاميات.

والحق أن سبب إخراجهم ليس قتل رجل من المسلمين؛ بل السبب في ذلك هو مؤامراتهم لقتل نبي الرحمة ﷺ، ونقض عهودهم، فتارة يعقدون حلفاً مع الأحزاب، وتارة يتآمرون مع المنافقين لقتل النبي ﷺ كما في قصة مسجد الضرار، وكما في قصة الشاة المسمومة(٥٢)، ومع هذا فإن النبي ﷺ لم يبادر بإخراجهم حتى أمره الله تعالى، وذلك حينما انتهى من معركة الخندق جاءه جبريل فقال له: "أقد وضعت السلاح؟ واللهِ ما وضعت الملائكة بعدُ السلاح، اخرُجْ إلى بني قريظة، فقاتلهم"(٥٣).

إذن ما فعله النبي ﷺ هو طاعة لله عز وجل، وطاعة الله تعالى واجبة في كل الأديان، ويثني الله تعالى على المطيعين، وكذلك عند أهل الأديان فإن المطيع عندهم له قدره ومقامه.

أما الرد من الأحاديث الشريفة الصحيحة في معاملة النبي ﷺ للآخر بأخلاقه السمحة، فقدكانت في غاية السلامة وقمة الحكمة في الرفق والإحسان، ومن ذلك التعامل ما يأتي:

أولاً: النهي عن تمني لقاء العدو وعن الإضرار وعن العنف

لقد كان نبي الرحمة ﷺ حريصاً على السلام مرغباً فيه، محذِّراً من الحرب ناهياً عنها، فقد صحّ عنه ﷺ أنه قال: "لا تتمنوا لقاء العدو،

---

(٥٢) تقدم ذكرها في الباب الأول: مبحث عفوه ﷺ.

(٥٣) أخرجه الإمام أحمد من حديث عائشة رضي الله عنها، وصححه محققوه بالشواهد (المسند٤٢/٢٨-٢٩، ح ٢٥٠٩٧)، وقد سردوا شواهده، وتقدم تتمة الحديث في العهد المدني.

وسلوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاصبروا، واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف، ثم قال ﷺ: اللَّهمَّ منــزل الكتاب، ومجري السحاب، وهــازم الأحزاب، اهزمهم وانصرنا عليهم"(٥٤).

قال المناوي: ولأنهم قد ينصرون استدراجاً؛ لأن لقاء العــدو أشــد الأشياء على النفس، والأمور الغائبة ليست كالمحققة، فلا يؤمن أن يكون عند الوقوع خلاف المطلوب، وتمنّي الشهادة لا تستلزم تمني اللقاء، وأُخذ منه النهي عن طلب المبارزة، ومن ثم قال علي ﷺ لابنه: لا تدع أحــداً إلى المبارزة، ومن دعاك لها أخرج إليه لأنه باغ، وقد ضمن الله نصر من بُغي عليه، ولطلب المبارزة شروط مبينة في الفروع إذا اجتمعت أمن معها المحذور في لقاء العدو، "وإذا لقيتموهم" أي العدو، ويستوي فيهم الواحد والجمع، قال تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ﴾ [الشعراء/٧٧] فاصبروا: اثبتوا ولا تظهروا التألم إن مسكم قرح، فالصبر في القتال: كظم ما يؤلم من غير إظهــار شكوى ولا جزع، وهو الصبر الجميل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الأنفال/٤٦]، قال الحرالي: فيه إشعار لهذه الأُمة بأن لا تطلب الحرب ابتداءً، وإنما تدافع من منعها من إقامة دينها، كما قال تعــالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْ﴾ [الحج/٣٩]، فحق المؤمن أن يأتي الحرب ولا يطلبه، فإنه إن طلبــه فأُوتيه عجز كما عجز من طلبه من الأُمم السابقة(٥٥).

---

(٥٤) صحيح البخاري-كتاب الجهاد والسير- باب كان الــنبي ﷺ إذا لم يقاتــل أول النهار أخّر القتال ٦/١٢٠رقم الحديث٢٩٦٦.

(٥٥) فيض القدير (٦/٣٨٨-٣٨٩).

وهذا النهي قد رتله النبي ﷺ كما في قوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْ﴾ [الحشر/٧][٥٦]، وهذا يدل على اهتمامه بالسلام وتجنب الحروب، وقد كان الصحابة ﷺ يستجيبون له، فكانوا دعاة سلام؛ لأنهم كانوا يدركون ويلات الحروب وما فيها من الأضرار، ولهذا كان يؤكد ذلك في النهي عن الإضرار بالآخرين، كما ثبت عنه ﷺ: "لا ضرر ولا ضرار"[٥٧]: هذه القاعدة النبوية من أهم القواعد في السلم والحرب.

وكذلك فقد اعتنى بالأمر بالرفق والنهي عن العنف فكان ﷺ يحث ويحض على الرفق في كل شيء، ولقد جاء التأكيد على أهمية التسامح بين أفراد المجتمع من تحذيره ﷺ من العنف، حتى في الرد على الاعتداء بالأقوال، فما بالك بالأفعال، فقد روى البخاري بسنده الصحيح عن عائشة رضي الله عنها أن يهوداً أتوا النبي ﷺ فقالوا: السام عليكم، فقالت عائشة: وعليكم، ولعنكم الله وغضب الله عليكم. قال: "مهلاً يا عائشة، عليكِ بالرفق، وإياك والعنف والفحش" قالت: أولم تسمع ما

---

(٥٦) صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْ﴾، (١٨٥٣/٤).

(٥٧) حديث ثابت أخرجه الإمام أحمد في المسند (٤٣٧/٣٧) ح (٢٢٧٧٨)، وأخرجه ابن ماجة في سننه – كتاب الأحكام – باب من بنى في حقه ما يضر بجاره (٧٨٤/٢) ح (٢٣٤٠)، وحسنه الحافظ ابن رجب (الأرناؤوط في تحقيقه لكتاب جامع العلوم والحكم (٢٠٧/٢)، وقال العلائي: للحديث شواهد ينتهي مجموعها إلى درجة الصحة أو الحسن المجتمع به، وحسنّه السيوطي. انظر فيض القدير شرح الجامع الصغير (٤٣١/٦-٤٣٢)، وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجة ح (١٨٩٥).

قالوا؟ قال: "أو لم تسمعي ما قلتُ؟ رددتُ عليهم، فيُستجاب لي فـــيهم، ولا يُستجاب لهم فيَّ"[٥٨].

وأكد على ذلك بأسلوب آخر حينما رغّب وحضّ وحثّ على الرفق في الأمور كلها، فقد ثبت عنه أنه ﷺ قال: "إن الله يحب الرفق في الأمر كله"[٥٩].

وقد بوَّب البخاري بهذا الحديث أيضاً، قال الحافظ ابن حجر: الرِفْق بكسر الراء وسكون الفاء بعدها قاف: هو لين الجانب بالقول والفعـــل، والأخذ بالأسهل، وهو ضد العنف، وذكر فيه حديثين: أحدهما حديث عائشة في قصة اليهود لما قالوا السام عليكم.

وقوله: "إن الله يحب الرفق في الأمر كله" وفي حديث عمـــرة عـــن عائشة عند مسلم: "إن الله يحب الرفق، ويعطي على الرفق ما لا يعطـــي على العنف"[٦٠]، والمعنى أنه يتأتى معه من الأمور ما لا يتأتى مع ضده، وقيل: المراد يثيب عليه ما لا يثيب على غيره، والأول أوجـــه. ولـــه في حديث شريح بن هانيء: "أن الرفق لا يكون في شـــيء إلا زانـــه، ولا ينـــزع من شيء إلا شانه"[٦١]، وفي حديث أبي الدرداء: "من أعطـــي

(٥٨) صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب لم يكن النبي ﷺ فاحشـــاً ولا متفحشـــاً، ح(٦٠٣٠).

(٥٩) صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب الرفق في الأمر كله ح (٣٠٢٤).

(٦٠) صحيح مسلم (٢٠٠٣/٤)، كتاب البر والصلة والآداب، باب فضل الرفـــق، ح (٢٥٩٣).

(٦١) المصدر السابق، ح (٢٥٩٤).

حظه من الرفق أعطي حظه من الخير" الحديث[٦٢]، وفي حديث جرير عند مسلم "من يحرم الرفق يحرم الخير كله"[٦٣]، [٦٤].

ومن منهاجه ﷺ في اجتناب العنف حسن كلامه ولطف عباراته؛ لأنه هو القدوة المثلى في اختيار القول الحسن، والكلام الطيب، كما أمر الله تعالى في قوله: ﴿ وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ كَانَ لِلْإِنسَـٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴾ [الإسراء/٥٣]، وهذه الأقوال والحكم التي تنشد السلام ترجمها ﷺ إلى أفعال حققت السلام، كما سيأتي في الحديث عن الصلح ورسائله ورسله وحواره.

وهذا المنهاج النبوي قد ترك آثاراً حميدة في أخلاقيات الأُمة الإسلامية التي تنبذ العنف، وتنشد السلام كما نراه في شتى العصور.

وأختم هذا الموضوع بقول الأستاذ الفرنسي جاك س.ريسلر:

إذا ما عرفنا أن هذا العمل العظيم أدرك وحقق في أقصر أجلٍ، أعظم أمل لحياة الإنسانية؛ فإنه يجب أن نعترف أن محمداً ﷺ يظل في عداد أعظم الرجال الذين شرف بهم تاريخ الشعوب والأديان[٦٥].

---

(٦٢) قال أبو عيسى: حديث حسن صحيح، سنن الترمذي (٣٦٧/٤)، كتاب البر والصلة، باب ما جاء في الرفق، ح (٢٠١٣).

(٦٣) صحيح مسلم (٢٠٠٣/٤)، كتاب البر والصلة والآداب، باب فضل الرفق، ح (٢٥٩٢).

(٦٤) فتح الباري (١٠ / ٤٤٩).

(٦٥) الحضارة العربية ص٣٧.

ثانياً: تعامله ﷺ في تقديم الحوار من أجل الصلح

إن النبي ﷺ كان يستخدم شتى الأساليب من أجل الحوار ثم الصلح؛ لأن من أهم أسباب النجاح والفلاح في معالجة الخلاف هو السماع من الطرف الآخر وفهم مراده وأهدافه، وذلك بالحوار الذي يرضي الله تعالى القائل: ﴿وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾ [النحل/١٢٥]، أي بأفضل الأساليب، وبالكلمة الطيبة التي استخدمها مع المشركين وأهل الكتاب وغيرهم مباشرة، أو بإرسال الرسل والرسائل كما يلي:

١- حواره ﷺ مع المشركين في صلح الحديبية

من أهم المعاهدات مع المشركين هو: صلح الحديبية الذي تعجب منه بعض الصحابة ﷺ؛ لأنهم لم يدركوا – في بداية الأمر- الحكمة النبوية من هذا الصلح الذي تبين فيما بعد آثاره وفوائده.

فقد أخرج مسلم بسنده عن البراء بن عازب ﷺ يقول: كتب علي ابن أبي طالب ﷺ الصلح بين النبي ﷺ وبين المشركين يوم الحديبية فكتب: هذا ما كاتب عليه محمد رسول الله، فقالوا: لا تكتب رسول الله فلو نعلم أنك رسول الله لم نقاتلك، فقال النبي ﷺ لعلي: "امحه"، فقال: ما أنا بالذي أمحوه، فمحاه النبي ﷺ بيده، قال: وكان فيما اشترطوا أن يدخلوا مكة فيقيموا بها ثلاثاً، ولا يدخلها بسلاح إلا جلبان السلاح، قلت لأبي إسحاق: وما جلبان السلاح؟ قال: القراب وما فيه[٦٦].

(٦٦) صحيح مسلم – كتاب الجهاد والسير – باب صلح الحديبية، (١٤٠٩/٣) ح (١٧٨٣).

قال النووي: وفيه أن للإمام أن يعقد الصلح على ما رآه مصلحة للمسلمين، وإن كان لا يظهر ذلك لبعض الناس في بادئ الرأي(٦٧).

وفي هذا الحديث بيان وجوب الصبر على المشركين، وتحقيق رغباتهم التي لا تضر بالمصلحة العامة للمسلمين، وفيه البيان الفعلي لطريقة الكتابة للمعاهدات، وجواز مثل هذه الكتابة من أجل الصلح وتجنب الحروب.

وصلح الحديبية هو الصلح الذي عقده رسول الله ﷺ مع كفار قريش(٦٨)، الذي سماه الله تعالى: الفتح المبين، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ [الفتح/١]، وفي مرجعه ﷺ أنزل الله تعالى سورة الفتح: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح/١-٢]، فقال عمر: أو فتح هو يا رسول الله؟ قال: "نعم". قال الصحابة: هذا لك يارسول الله، فما لنا؟ فأنزل الله: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝٤ لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ۝٥﴾ [الفتح/٤-٥]، وعدة الصحابة إذ ذاك ألف وأربعمائة، وهم أهل الشجرة وأهل بيعة الرضوان (٦٩).

وهذه الخطوة المباركة حوّلت الشقاق إلى اتفاق، وحفظت دماء الطرفين، وأدرك اليهود قوة المؤمنين؛ بأنهم قادرون على إدارة الوضع في

---

(٦٧) شرح النووي على صحيح مسلم (١٢/١٣٥).

(٦٨) ينظر تلقيح فهوم أهل الأثر ص(٤٥)، والبداية والنهاية (٤/١٥٠-١٦٤).

(٦٩) ينظر مختصر سيرة الرسول ﷺ، ص (١٢٧-١٣٢).

المدينة، وكذلك عرف بقية المشركين أن المؤمنين أرباب شوكة، هابها مشركو مكة المكرمة، وكذلك تشجعت بعض القبائل للتحالف مع الدولة المسلمة الجديدة، وسطع وميض الاعتراف بهذه الدولة، مما أدى نسبياً إلى إزالة خطر بعض المتحالفين مع مشركي قريش، فقد عرفوا أن تلك المعاهدات مع قريش لم تنفعهم مع التطور الجديد في ظهور قوة المسلمين.

ومن النتائج الباهرة لصلح الحديبية ما يلي:

أ- كسب الاعتراف من قريش بقوة المسلمين.

ب- اكتسب المسلمون حرية الدعوة في الجزيرة العربية.

ج- أعطت الناس خياراً سليماً بعيداً عن الحرب وويلاتها.

د- التربية على طاعة الإمام في أمره حتى ولو لم تظهر مصلحته عاجلاً.

٢- حواره ﷺ مع أهل الكتاب

من الأخلاق العظيمة للنبي ﷺ أنه لم يتسرع في عقوبة المجرم حتى يسمع منه سبب عملية إجرامه، وذلك بالحوار الهادئ الهادف، على الرغم من خطورة الجريمة؛ فإن بعض الجرائم كادت أن تقتل النبي ﷺ، فقد ثبت عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: لما فتحت خيبر أهديت للنبي ﷺ شاة فيها سم، فقال النبي ﷺ: "اجمعوا إلي من كان هاهنا من يهود". فجمعوا له فقال: "إني سائلكم عن شيء فهل أنتم صادقي عنه؟" فقالوا: نعم. قال لهم النبي ﷺ: "من أبوكم؟" قالوا: فلان. فقال: "كذبتم بل أبوكم فلان". قالوا: صدقت. قال: "فهل أنتم صادقي عن شيء إن سألت عنه؟"

فقالوا: نعم يا أبا القاسم، وإن كذبنا عرفت، كذبنا كما عرفته في أبينا. فقال لهم: من أهل النار؟ قالوا: نكون فيها يسيراً ثم تخلفونا فيها. فقال النبي ﷺ: "اخسؤوا فيها، والله لا نخلفكم فيها أبداً" ثم قال: "هل أنتم صادقي عن شيء إن سألتكم عنه؟" فقالوا: نعم يا أبا القاسم. قال: "هل جعلتم في هذه الشاة سُمّاً؟" قالوا: نعم. قال: "ما حملكم على ذلك؟" قالوا: أردنا إن كنت كاذباً نستريح، وإن كنت نبياً لم يضرك(٧٠).

إنه حوار عجيب تتجلى من خلاله عظمة خلق النبي ﷺ في العفو عند المقدرة، ويتبيّن صبره على مكائد اليهود.

ومن حواره مع النصارى حينما جاء العاقب والسيد صاحبا نجران إلى رسول الله ﷺ يريدان أن يلاعناه، قال: فقال أحدهما لصاحبه: لا تفعل، فو الله لئن كان نبياً فلاعننا لا نفلح نحن ولا عقبنا من بعدنا. قالا: إنا نعطيك ما سألتنا، وابعث معنا رجلاً أميناً، ولا تبعث معنا إلا أميناً. فقال: لأبعثن معكم رجلاً أميناً حق أمين، فاستشرف له أصحاب رسول الله ﷺ، فقال: قم يا أبا عبيدة بن الجراح، فلما قام قال رسول الله ﷺ : "هذا أمين هذه الأُمة"(٧١).

قال ابن حجر: وفي قصة أهل نجران من الفوائد جواز مجادلة أهل الكتاب، وقد تجب إذا تعينت مصلحته، وفيها مشروعية مباهلة المخالف إذا أصر بعد ظهور الحجة... وفيها مصالحة أهل الذمة على ما يراه الإمام

---

(٧٠) صحيح البخاري ، كتاب الجهاد، باب إذا غدر المشركون بالمسلمين هل يعفى عنهم، (١١٥٦/٣)، ح(٢٩٩٨).

(٧١) صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب قصة أهل نجران، (١٥٩٢/٤).

من أصناف المال.. وفيها بعث الإمام الرجل العالم الأمين إلى أهل الهدنة في مصلحة الإسلام[٧٢].

هكذا كان يُدار الحوار الهادي الهادف لتجنب الصدام ونشر السلام، ولقد ترك هذا الخلق العظيم آثاراً عظيمة، وأخلاقاً كريمة في نفوس المسلمين، إذ لا يزالون يعقدون الحوار مع اليهود والنصارى منذ موته ﷺ إلى زماننا هذا من أجل نشر السلام والإسلام وتجنب القتال، وما فيه من الوبال والنكال.

٣- إرسال الرسل والرسائل

من الأخلاق العظيمة التي كان النبي ﷺ يتحلى بها اهتمامه بهداية الناس أجمعين، من أجل ذلك كتب إلى كسرى وإلى قيصر وإلى النجاشي وإلى ملوك الكفار يدعوهم إلى الله تعالى[٧٣]، ومن هذه الكتب: كتابه ﷺ إلى هرقل، فقد صحَّ عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: حدثني أبو سفيان رضي الله عنه من فيه إلى فيّ[٧٤] قال: انطلقت في المدّة التي كانت بيني وبين رسول الله ﷺ، قال: فبينا أنا بالشام إذ جيء بكتاب من النبي ﷺ إلى هرقل... فإذا فيه: "بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلَم، وأسلمْ يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت

---

(٧٢) فتح الباري (٩٥/٨).

(٧٣) صحيح البخاري - كتاب الجهاد- باب كتاب النبي ﷺ إلى كسرى وقيصر (١٦١٠/٤).

(٧٤) هذه صيغة من صيغ التحديث، ومعناها سمعت من فم أبي سفيان، وأديته كما سمعته منه.

فإن عليك إثم الأريسيين[٧٥]، ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [آل عمران/٦٤][٧٦].

وهذه الرسالة تقطر أدباً وبلاغة وموعظة ونصيحة، لقد أدرك نبي الرحمة أن في الروم من يوحِّد الله تعالى، لكنهم كانوا مضطهدين، من أجل ذلك ذكَّر هرقل بذلك واعظاً له رغبة بالسلم، وحذره من الظلم، إذ بيَّن لهرقل أنه إذا رفض السلم فإنه سيتحمَّل وزر الموحدين المضطهدين.

ثالثاً: تعامله ﷺ في الهدنة والأمان

بما أن دين الإسلام ينشد السلام كما أمر الله تعالى رسوله ﷺ: ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الأنفال/٦١]، فقد استجاب رسول الله ﷺ لهذا الأمر قولاً وعملاً ومنهاجاً.

قال العلامة بدر الدين بن جماعة: والهدنة: مشتقة من الهدون، وهو السكون، لأن الهدنة تسكن ثائرة الحرب والفتن.

ويجوز للإمام ونائبه عقد الهدنة لإقليم معين أو ناحية معينة إذا اقتضت مصلحة المسلمين ذلك، إما لإراحة جيش الإسلام، أو لترتيب أمورهم،

---

(٧٥) نسبة إلى آريوس أحد كبار النصارى الموحدين لله تعالى (لمعرفة آريوس ينظر محاضرات في النصرانية ص١٥١) للشيخ محمد أبو زهرة.

(٧٦) صحيح البخاري، كتاب التفسير، آل عمران، باب قوله: ﴿تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ﴾ ح(٤٥٥٣).

أو لزيادة استعدادهم، ولتوقع إسلام الكفار أو قبولهم الجزية بغير قتال[٧٧].

ومن نماذج الهدنة والأمان:

١- إعلان المدينة:

ومن أهم الكتب التي حبرها النبي ﷺ للهدنة مع اليهود إعلان المدينة، فقد وضع فيه الأسس المثالية للتعامل مع الآخر، واستطاع أن يقضي على مشكلة التخوف والتحسس من الآخر، بالعدل وإعطاء كل ذي حق حقه، كما في تعامله مع اليهود في المدينة، فقد وضع معاهدة سياسية اجتماعية عامة للمدينة، وفيها اتفاقيات مع اليهود ضمنت مصالح الطرفين. لقد سطر رسول الله ﷺ وثائق سياسية داخلية تسمى (إعلان المدينة) وفيها التعامل الحكيم الذي ضمن حقوق كل فئة تسكن المدينة ومنهم اليهود.

إن وضع معاهدة لكل سكان المدينة بمختلف مللهم تضمن حقوق الجميع، وتمنع الاعتداء بين هذه الملل؛ بل وتمنع الظلم فيما بين الملة الواحدة، فقد فصلت حقوقهم تفصيلاً كما يلي:

- هذا كتاب من محمد النبي (رسول الله) بين المؤمنين والمسلمين من قريش وأهل يثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم.
- إنهم أُمَّة واحدة من دون الناس.

(٧٧) تحرير الأحكام في تدبير أهل الإسلام، ص٢٣١-٢٣٢.

- وإنه من اتبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة غير مظلــومين ولا متناصر عليهم[٧٨].

٢- الوفاء بالعهد

إن عظمة أخلاق النبي ﷺ تجلت في قضايا كثيرة، منها: الوفاء بالعهد مهما كان الموقف محرجاً، ومثال ذلك: لما تم الاتفاق في صلح الحديبيــة على عدة قضايا، ومنها شرط المشركين: "وعلى أنه لا يأتيك منَّا رجــل وإن كان على دينك إلا رددته إلينا".

ثم رجع النبي ﷺ إلى المدينة فجاءه أبو بصير رجل من قــريش وهــو مسلم، فأرسلوا في طلبه رجلين، فقالوا: العهد الذي جعلت لنا فدفعه إلى الرجلين، فخرجا به حتى بلغا ذا الحليفة فنــزلوا يأكلون من تمــر لهــم، فقال أبو بصير لأحد الرجلين: والله إني لأرى سيفك هذا يا فلان جيداً، فاستلَّه الآخر، فقال: أجل والله إنه لجيد، لقد جربت به ثم جربت، فقال أبو بصير: أرني أنظر إليه، فأمكنه منه فضربه حتى برد، وفرَّ الآخر حــتى أتى المدينة، فدخل المسجد يعدو فقال رسول الله ﷺ حين رآه: "لقد رأى هذا ذعراً". فلما انتهى إلى النبي ﷺ قال: قتل والله صاحبي، وإني لمقتول. فجاءِ أبو بصير فقال: يا نبي الله قد والله أوفى الله ذمتك، قد رددتني إليهم ثم أنجاني الله منهم. قال النبي ﷺ: ويل أُمه مسعر حرب لو كان له أحد. فلما سمع ذلك عرف أنه سيرده إليهم، فخرج حتى أتى سيف البحر قال: وينفلت منهم أبو جندل بن سهيل، فلحق بأبي بصير فجعل لا يخرج من قريش رجل قد أسلم إلا لحق بأبي بصير، حتى اجتمعت منهم عصــابة،

---

(٧٨) ينظر الأموال لابن زنجويه ٤٧٢/٢وأحكام أهل الذمة ٥٦٦/٢.

فوالله ما يسمعون بعير خرجت لقريش إلى الشام إلا اعترضوا لها فقتلوهم وأخذوا أموالهم، فأرسلت قريش إلى النبي ﷺ تناشده بالله والـــرحم لمـــا أرسل فمن أتاه فهو آمن. فأرسل النبي ﷺ إليهم، فأنزل الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي كَفَّ أَيۡدِيَهُمۡ عَنكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ عَنۡهُم بِبَطۡنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعۡدِ أَنۡ أَظۡفَرَكُمۡ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ حتى بلغ: ﴿ٱلۡحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ﴾ [الفتح/٢٤-٢٦]، وكانت حميتهم أنهم لم يقروا أنـــه نبي الله، ولم يقروا ببسم الله الرحمن الرحيم، وحالوا بينهم وبين البيت.

قال أبو عبد الله: ﴿مَّعَرَّةُۢ﴾ المعرة: الجرب، ﴿تَزَيَّلُواْ﴾ تميزوا، حميـــت القوم: منعتهم حماية، وأحميت الحمى جعلته حمى لا يدخل.(٧٩)

ويستفاد من هذه الرواية أن النبي ﷺ وفّى بهذا العهد، وردّ إليهم أبـــا بصير رضي الله عنه، وردَّ إليهم أبا جندل رضي الله عنه، بل ردَّ كلَّ من كانت حالته كهذه، حيث تكونت منهم فئة مجاهدة صابرة على تلك المحنة كما في الروايـــة السابقة، وقد بشرهم بالفرج في قوله ﷺ: "ومن جاءنا منهم سيجعل الله له فرجاً ومخرجاً"(٨٠).

وقد جعل الله تعالى لهم فرجاً ومخرجاً، ونصرهم على عدوهم.

إنه الوفاء بالعهد، مع أن هذا الأمر شديد على النفوس، وعلى نفوس الصحابة جميعاً رضي الله عنهم، ولكن أمر الله تعالى فوق ذلك إذ يقول ســبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ﴾ [المائدة/١]، وقد حثَّ وحض على الوفاء بالعهد، وهكذا كان خلق النبي ﷺ.

---

(٧٩) صحيح البخاري، كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد.. ح(٢٥٨١).

(٨٠) صحيح مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب صلح الحديبية ح(١٧٨٤).

إن هذا الخلق العظيم بهر القاصي والداني، قال الأستاذ (هاك) في كتابه مساهمة الإسلام في السلام العالمي، الذي نشره باللغة الانكليزية في لاهور عام١٩٣٢: إن الأمم تبذل الكثير من الجهود، وتعقد المؤتمرات لمنع التسليح، ومنع الحرب، أو للتقليل من فرص إعلانها، ولكن جهودها باءت بالفشل، ذلك لأن الدول إذ تتعهد، لا تقيد نفسها بالمعاهدة إلا حين تنعدم عندها الوسيلة لنقضها، حتى إذا ما توفرت عندها القوة الكافية لذلك، أعلنت أن المعاهدة التي أبرمتها وارتبطت ببنودها حبر على ورق، ويقدم لنا التاريخ كثيراً من الأمثلة على ذلك، ولو طبقت أحكام الإسلام فيما يتعلق بالحروب والجهاد تطبيقاً كاملاً، لوجد العالم فيها جنته التي يبحث عنها بدلاً من الجحيم الذي هو مسوق إليه، ليطيع كل منا دعوة الله تعالى التي يقول فيها: ﴿كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْاْ فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾[البقرة/٦٠](٨١).

فالوفاء بالعهد من الشيم التي علمها النبي ﷺ الصحابة رضي الله عنهم ورغب فيها وحذر من خرقها بأذى أهل الذمة وظلمهم.

أخرج أبو داود بسنده عن سليم بن عامر -رجل من حمير- قال: كان بين معاوية وبين الروم عهد، وكان يسير نحو بلادهم، حتى إذا انقضى العهد غزاهم، فجاء رجل على فرس أو بِرذون وهو يقول: الله أكبر، الله أكبر، وفاء لا غدر، فنظروا فإذا عمرو بن عبسة، فأرسل إليه معاوية، فسأله، فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "من كان بينه وبين

(٨١) ينظر: الرسول القائد ص٥٩.

قوم عهد لا يَشُدُّ عقدة ولا يحلها حتى ينقضي أمدها، أو ينبذ إليهم على سواء" فرجع معاوية[٨٢].

قال العظيم آبادي: وفاء لا غدر: أي الواجب عليك وفاء لا غدر... وأما إن نقض أهل الهدنة بأن ظهرت منهم خيانة فله أن يسير إليهم على غفلة منهم، "لا يشد عقدة ولا يحلها" بضم الحاء من الحل، بمعنى: نقض العهد، والشد ضده، والظاهر أن المجموع كناية عن حفظ العهد وعدم التعرض له... وقال ابن الملك: أي لا يجوز نقض العهد، ولا الزيادة على تلك المدة والله أعلم[٨٣].

وقد حذر النبي ﷺ من أذى وظلم أهل الذمة والمعاهدين، فقد ثبت عنه ﷺ أنه قال: "ألا من ظلم معاهداً أو انتقصه أو كلفه فوق طاقته، أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفس، فأنا خصمه يوم القيامة"[٨٤].

وهذا من الأحاديث القولية، وكذا حديث عمرو بن عبسة رضي الله عنه؛ لبيان حق المعاهد، وقد اجتمع القول والفعل في وجوب إعطاء هذا الحق في معاهداته مع غير المسلمين.

---

(٨٢) السنن (٨٣/٣) ح (٢٧٥٩)، كتاب الجهاد، باب في الإمام يكون بينه وبين العدو عهد فيسير إليه، وقال الترمذي: حديث حسن صحيح (السنن ١٤٣/٤ ح١٥٨٠، كتاب السير، باب ما جاء في الغدر). وقال الألباني: صحيح (صحيح سنن الترمذي ح ١٢٨٥).

(٨٣) عون المعبود (٣١٢/٧).

(٨٤) أخرجه أبو داود: باب في تعشير أهل الذمة إذا اختلفوا في التجارات، ح٣٠٥٢، (١٧١/٣). قال السخاوي: وسنده لا بأس به (المقاصد الحسنه ص ٣٩٢).

رابعاً: تعامله الاجتماعي:

انسجم المجتمع الذي عايش الرسول ﷺ بمختلف ملله وحضاراته، إذ تجلت الروابط الاجتماعية مع غير المسلمين في المصاهرة والزيارة وإعطاء حق الجيران والضيفان، والعناية بميدان الدعوة والتعليم، وعقد بين جميع أهل الملل، وإبرام المعاهدات مع بلدان الجوار بأرقى حوار، وهذا مندوب ومطلوب مع كل من يريد تعظيم شعائر الله تعالى من غير المسلمين.

يقول (آدم ميتز) واصفاً حالة التعايش السلمي بين المسلمين ومخالفيهم في العقيدة: (كان وجود النصارى بين المسلمين سبباً لظهور مبادئ التسامح التي ينادي بها المصلحون المحدثون، وكان الحاجة إلى المعيشة المشتركة، وما ينبغي أن يكون فيها من وفاق، مما أوجد من أول الأمر نوعاً من التسامح الذي لم يكن معروفاً في أوروبا في العصور الوسطى ومظهر هذا التسامح نشوء علم مقارنة الأديان، أي: دراسة الملل والنحل على اختلا فها، والإقبال على هذا العلم بشغف عظيم...)[٨٥].

وهذا التعايش قد أمر به الله تعالى إذ قال ﷻ: ﴿ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ ﴾ [الممتحنة: ٨].

يقول الطبري في تفسير هذه الآية: عني بذلك لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين من جميع أصناف الملل والأديان أن تبروهم وتصلوهم وتقسطوا إليهم إن الله ﷻ عمّ بقوله: ﴿ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ

---

(٨٥) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري (١/٢٠٠).

﴿وَلَمۡ يُخۡرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ﴾ جميع من كان ذلك صفته، فلم يخصص به بعضاً دون بعض. ولا معنى لقول من قال ذلك منسوخ؛ لأن بر المؤمن لأهل الحرب ممن بينهم وبينه قرابة نسب أو ممن لا قرابة بينهم وبينه ولا نسب غير محرم ولا منهي عنه، إذا لم يكن في ذلك دلالة له أو لأهل الحرب على عورة لأهل الإسلام أو تقوية لهم بكراع أو سلاح(٨٦).

ومن صور التعامل الاجتماعي ما يلي:

١- العلاقات الاجتماعية مع أهل الكتاب:

ومن العوامل التي ضبطت العلاقات الاجتماعية كتابة إعلان المدينة الذي أمر بكتابته الرسول ﷺ، فربط جميع سكان المدينة النبوية بروابط اجتماعية واقتصادية وسياسية، ومن الروابط الاجتماعية التي رسخت العلائق: جعل سكان المدينة كلهم أمةً واحدة من المسلمين واليهود والقبائل العربية التي لم تدخل الإسلام ومن تبعهم، وأنهم يدافعون جميعاً إذا داهمهم العدو، ونصرة اليهود المتبعين للمسلمين، وإن كل طرف يفدون أسراهم، والمساواة بين قبائل اليهود كلهم يدخلون في ذلك الإعلان بما فيه من الحقوق والواجبات، وأنهم يتناصحون فيما بينهم، وأنهم يتصالحون مع من أراد الصلح، كما أكد على حرمة الجار، وسيأتي ذكر هذا الإعلان مفصلاً بكامله في التعامل السياسي.

---

(٨٦) تفسير الطبري (٣٢٣/٢٣).

٢- إرسال اللاجئين المضطهدين إلى نصارى الحبشة:

وفي السنة الخامسة للهجرة اشتد أذى المشركين للمؤمنين، فكانت الهجرة إلى مملكة أصحَمة النجاشي (الحبشة) فآواهم وأكرمهم، فكانوا عنده آمنين[٨٧].

فلما علمت قريش بذلك بعثت في إثرهم عبد الله بن أبي ربيعة وعمرو ابن العاص - قبل إسلامه - بهدايا وتحفٍ من بلادهم إلى النجاشي؛ ليردَّهم عليهم، فأبى ذلك عليهم، وتشفعوا إليه بالقواد من جنده، فلم يُجبهم إلى ما طلبوا، فَوشَوا إليه: إن هؤلاء يقولون في عيسى قولاً عظيماً، يقولون: إنه عبد، فأحضر المسلمين إلى مجلسه، وزعيمهم جعفر بن أبي طالب ﷺ، فقال: ما يقول هؤلاء إنكم تقولون في عيسى؟! فتلا عليه جعفر سورة: ﴿كٓهيعٓصٓ﴾ [مريم/١]، فلما فرغ أخذ النجاشي عوداً من الأرض فقال: ما زاد هذا على ما في التوراة ولا هذا العود، ثم قال: اذهبوا فأنتم شُيُّوم[٨٨] بأرضي، من سبَّكم غَرم، وقال لعمرو وعبد الله: لو أعطيتموني دَبْرَاً من ذهب -يقول: جبلاً من ذهب- ما سلَّمتهم إليكما، ثم أمر فرُدَّت عليهما هداياهما، ورجعا مقبوحين بشر خيبة وأسوئها[٨٩].

ويستفاد من هذه الرحلة وجود العلائق بين النصارى والمسلمين، وخاصة النصارى من المؤمنين بالقرآن الكريم فإنهم كانوا يتأثرون بل

---

(٨٧) ينظر طبقات ابن سعد (١/٢٠٤)، والسيرة النبوية للذهبي ص(١١٧).

(٨٨) أي: الآمنون بلغة الحبشة كما في حاشية الفصول لابن كثير ص(٨٧).

(٨٩) ينظر الفصول ص(٨٧-٨٩)، وصحيح البخاري، كتاب مناقب الأنصار، باب هجرة الحبشة حديث (٣٨٧٢-٣٨٧٦)، وقد وردت قصة الهجرة إلى الحبشة بالتفصيل في مسند الإمام أحمد (٣/٢٦٣-٢٦٨) ح(١٧٤٠).

يكون، قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعۡيُنَهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلۡحَقِّۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلۡحَقِّ وَنَطۡمَعُ أَن يُدۡخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [المائدة/٨٣-٨٤].

٣- العفو:

لقد ضربت سماحة النبي ﷺ ورحمته القدح المعلى والقدوة المثلى في التعامل مع غير المسلمين، حتى فيمن آذاه بالسحر، فقد قام لبيد بن الأعصم اليهودي بسحر النبي ﷺ، وإذا برعاية الله تعالى لنبيه تكشف هذا المخطط الخبيث وتبطله وتخلصه من هذا الشر.

أخرج البخاري بسنده عن عائشة رضي الله عنها قالت: سَحر رسولَ الله ﷺ رجلٌ من بني زُريق يقال له لَبيد بن الأعصم، حتى كان رسول الله ﷺ يخيل إليه أنه كان يفعل الشيء وما فعله. حتى إذا كان ذات يوم -أو ذات ليلة- وهو عندي، لكنه دعا ودعا ثم قال: "يا عائشة، أشعرت أن الله أفتاني فيما استفتيته فيه؟ أتاني رجلان، فقعد أحدهما عند رأسي، والآخر عند رجلي، فقال أحدهما لصاحبه: ما وجع الرجل؟ فقال: مطبوب. قال: من طبَّه؟ قال: لَبيد بن الأعصم. قال: في أي شيء؟ قال: في مشط ومشاطة، وجف طلع نخلة ذكر. قال: وأين هو؟ قال: في بئر ذروان". فأتاها رسول الله ﷺ في ناس من أصحابه. فجاء فقال: "يا عائشة، كأن ماءها نقاعة الحناء، وكأن رؤوس نخلها رؤوس

الشياطين". قلت: يا رسول الله أفلا استخرجته؟ قال: "قد عافاني الله، فكرهت أن أثير على الناس فيه شراً. فأمر بها فدفنت"[٩٠].

قال ابن حجر قوله: "فقال: مطبوب" أي مسحور، يقال طب الرجل بالضم إذا سحر، يقال كنوا عن السحر بالطب تفاؤلاً كما قالوا للديغ سليم.

وهذا الحديث يجسد لنا الاهتمام العملي النبوي بوجوب العمل بالعهود التي أبرمها مع اليهود، وتنفيذ هذا الحق حتى لو حصل الغدر من بعض الأفراد، فلم يعلنها ثورة انتقامية، ولكنه جعلها عملية دفن سرية هادئة هادفة، دفعا للشر والمفاسد وجلباً للخير والمصالح، وقد روى سعيد ابن المسيب وعروة بن الزبير أنه لم يذكر أن النبي ﷺ قتل منهم أحداً[٩١].

قال الحافظ ابن حجر: لأن ترك قتل لبيد بن الأعصم كان لخشية أن يثير بسبب قتله فتنة، أو لئلا ينفر الناس عن الدخول في الإسلام، وهو من جنس ما راعاه النبي ﷺ من منع قتل المنافقين حيث قال: "لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه"[٩٢].

---

(٩٠) الصحيح (١٠/٢٢١)، كتاب الطب، باب السحر، وقول الله تعالى: ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ ﴾ [البقرة/١٠٢] ح (٥٧٦٣).

(٩١) أخرجه عبد الرزاق بسند صحيح إليهما، (المصنف: ١٠/ ٣٦٩، رقم ١٩٣٩٥).

(٩٢) الفتح (١٠/٢٣١).

٤- زيارته ﷺ لأهل الكتاب:

ومن لطفه أنه كان يزور كنيسة اليهود يوم عيدهم ومعه بعض أصحابه رضي الله عنهم، فقد صحَّ عن عوف بن مالك الأشجعي رضي الله عنه، قال: انطلق النبي ﷺ وأنا معه حتى دخلنا كنيسة اليهود بالمدينة يوم عيدهم[٩٣].

ومن هذا الحديث استنبط العلماء جواز عيادة أهل الذمة، قال المروذي: بلغني أن أبا عبد الله سئل عن رجل له قرابة نصراني: يعوده؟ قال: نعم. قال الأثرم: وسمعت أبا عبد اللّه يُسألُ عن الرجل له قرابة نصراني يعوده. قال: نعم. قيل له: نصراني. قال: أرجو ألا تضيق العيادة[٩٤].

وفي هذا الحديث تطبيق عملي لبيان جواز مثل هذه الزيارة لأجل الدعوة إلى الله تعالى.

وعلى هذا المنهاج سار السلف الصالح، فقد أخرج عبد الرزاق الصنعاني بسند صحيح عن ابن جريج عن سليمان بن موسى أنه قال: (نعود بني النصارى وإن لم تكن بيننا وبينهم قرابة)[٩٥].

---

(٩٣) أخرجه ابن حبان (الإحسان ١٦/١١٨-١٢٠ ح ٧١٦٢) قال محققه: إسناده صحيح، وأخرجه الحاكم في (المستدرك ٣/٤١٥-٤١٦). وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي، وأخرجه أحمد في (المسند ٦/٢٥) والطبراني في (المعجم الكبير ١٨/٤٦-٤٧ ح٨٣) وقال الهيثمي: ورجاله رجال الصحيح (المجمع ٧/١٠٦).

(٩٤) أحكام أهل الذمة (١/١٥٠).

(٩٥) المصنف: (باب عيادة المسلم الكافر ٦/ ٣٦، رقم ٩٩٢٣).

وكذلك فقد كان يزور بعض خدمه من اليهود، فقد صحَّ عن أنـــس ﷺ قال: كان غلام يهودي يخدم النبي ﷺ فمرض فأتاه النبي ﷺ يعوده، فقعد عند رأسه فقال له: "أسلم"، فنظر إلى أبيه وهو عنده فقال له: أطع أبا القاسم ﷺ فأسلم، فخرج النبي ﷺ وهو يقول: "الحمد لله الذي أنقذه من النار"(٩٦).

قال ابن حجر: وفي الحديث جواز استخدام المشـــرك وعيادتـــه إذا مرض، وفيه حسن العهد واستخدام الصغير وعرض الإسلام على الصبي، ولولا صحته منه ما عرضه عليه(٩٧).

قال العيني: وفيه جواز عيادة أهل الذمة، ولا سيما إذا كان الـــذمي جاراً له؛ لأن فيه إظهار محاسن الإسلام وزيادة التآلف بهم ليرغبـــوا في الإسلام(٩٨).

٥- اعتماد شهادة أهل الكتاب:

فقد اعتمد رسول الله ﷺ شهادة أهل الكتاب في السفر على الوصية كما في تفسير قوله تعـــالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ بَيۡنِكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ حِينَ ٱلۡوَصِيَّةِ ٱثۡنَانِ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ أَوۡ ءَاخَرَانِ مِنۡ غَيۡرِكُمۡ إِنۡ أَنتُمۡ ضَرَبۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَأَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةُ ٱلۡمَوۡتِۚ تَحۡبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعۡدِ ٱلصَّلَوٰةِ فَيُقۡسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ لَا نَشۡتَرِي بِهِۦ ثَمَنٗا وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰ وَلَا نَكۡتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ إِنَّآ إِذٗا لَّمِنَ

(٩٦) صحيح البخاري (٤٥٥/١)، كتاب الجنائز، باب إذا أسلم الصبي فمـــات هـــل يصلى عليه وهل يعرض على الصبي الإسلام، ح (١٢٩٠).

(٩٧) فتح الباري، (٢٢١/٣).

(٩٨) عمدة القاري، (١٧٥/٨).

﴿ٱلْأَثِمِينَ ١٠٦﴾ [المائدة: ١٠٦]، والمراد بالآخرين من غيركم: أي من أهل الكتاب، فقد صح عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: خرج رجل من بني سهم مع تميم الداري وعدي بن بداء، فمات السهمي بأرض ليس بها مسلم، فلما قدما بتركته فقدوا جاماً من فضة مخوصاً من ذهب، فأحلفهما رسول الله ﷺ ثم وجد الجام بمكة فقالوا: ابتعناه من تميم وعدي فقام رجلان من أوليائه فحلفا ﴿لَشَهَٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَٰدَتِهِمَا﴾ [المائدة/ ١٠٧]، وإن الجام لصاحبهم، قال وفيهم نزلت هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ بَيۡنِكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ حِينَ ٱلۡوَصِيَّةِ ٱثۡنَانِ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ أَوۡ ءَاخَرَانِ مِنۡ غَيۡرِكُمۡ إِنۡ أَنتُمۡ ضَرَبۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَأَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةُ ٱلۡمَوۡتِۚ تَحۡبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعۡدِ ٱلصَّلَوٰةِ فَيُقۡسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ لَا نَشۡتَرِي بِهِۦ ثَمَنٗا وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰ وَلَا نَكۡتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ إِنَّآ إِذٗا لَّمِنَ ٱلۡأٓثِمِينَ﴾(٩٩).

قال ابن حجر: واستدل بهذا الحديث على جواز شهادة الكفار، بناء على أن المراد بالغير الكفار، والمعنى: ﴿مِّنكُمۡ﴾ أي: من أهل دينكم. ﴿أَوۡ ءَاخَرَانِ مِنۡ غَيۡرِكُمۡ﴾ أي: من غير أهل دينكم. وبذلك قال أبو حنيفة ومن تبعه، وتعقب بأنه لا يقول بظاهرها فلا يجيز شهادة الكفار على المسلمين، وإنما يجيز شهادة بعض الكفار على بعض، وأجيب بأن الآية دلت بمنطوقها على قبول شهادة الكافر على المسلم، وبإيمائها على قبول شهادة الكافر على الكافر بطريق الأولى. ثم دل الدليل على أن شهادة

---

(٩٩) صحيح البخاري (١٠٢٢/٣)، كتاب الوصايا، باب قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ بَيۡنِكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ﴾ ح ٢٦٢٨. وقد حسنه علي بن المديني، كما نقله المزي في (تهذيب الكمال ٣١٢/١٨).

الكافر على المسلم غير مقبولة فبقيت شهادة الكافر على الكافر على حالها، وخص جماعة القبول بأهل الكتاب وبالوصية وبفقد المسلم حينئذ، منهم ابن عباس وأبو موسى الأشعري وسعيد بن المسيب وشريح وابن سيرين والأوزاعي والثوري وأبو عبيد وأحمد، وهؤلاء أخذوا بظاهر الآية وقوى ذلك عندهم حديث الباب فإن سياقه مطابق لظاهر الآية[١٠٠].

وفي هذا الحديث العظيم يتجلى حكم شرعي يفصح عن الثقة بأهل الذمة المعاهدين، ويتجسد ضرب من ضروب حسن الظن بهم؛ وذلك من خلال التطبيق النبوي العملي الذي أجاز هذا الحق، وجعله قاعدة شرعية باقية للأمة حتى تقوم الساعة، وكذلك هذا الحديث وضَّح هذه الآية التي أشكلت على كثير من المفسرين الذين لم يقفوا على هذه الرواية[١٠١].

٦- قبول الهدية من اليهود:

صح عن النبي ﷺ أنه قبل الهدية من المرأة اليهودية التي أهدته الشاة المسمومة[١٠٢]، وفي ذلك تأليف للقلوب وتقارب للنفوس، وفي هذا الحديث قبوله لهدية اليهودية، وهذا غاية في حسن الظن، وفيه جواز قبول الهدية من المعاهدين، وقد تقدم عن هذه السنة العملية في المطلب الأول في حق دعوة أهل الكتاب.

---

(١٠٠) فتح الباري ٥/٤١٢.

(١٠١) انظر فتح القدير للشوكاني (٢/٩٠).

(١٠٢) أخرجه البخاري (الصحيح - كتاب الهبة - باب قبول الهدية من المشركين ح ٢٢١٧).

وقد وردت رواية عند أبي داود بأنه قتلها، ولكن الرواية ضعيفة، إذ قال المنذري هذا مرسل(١٠٣).

قال الأستاذ الفرنسي ادوار بروي Edourd Perroy من جامعة السربون: عندما قبض النبي العربي [ﷺ] عام ٦٣٢م كان قد انتهى من دعوته، كما انتهى من وضع نظام اجتماعي يسمو كثيراً فوق النظام القبلي الذي كان عليه العرب قبل الإسلام، وصهرهم في وحدة قوية، وهكذا تم للجزيرة العربية وحدة دينية متماسكة، لم تعرف مثلها من قبل(١٠٤).

٧- العلاقات الاجتماعية مع مشركي قريش:

لقد كانت علاقات النبي ﷺ الاجتماعية مع مشركي قريش في غاية الكمال والجمال على الرغم من الأغلبية التي كانت له بالمرصاد بسبب نشره الإسلام ودعوتهم إليه، فكان يتعامل معهم بكل الأمور الاجتماعية فيما يخص الزواج، ومعاشرة الأصدقاء، وصلة الأقارب وزياراتهم، ويتعاون معهم، وإذا طلبوا منه أن يستسقى لهم فإنه يستجيب لذلك، وكان يشاركهم في أمور الصلح وحضور بعض مجالسهم كما يلي:

أ- تأليف القلوب بالتكريم والمساعدة المالية:

ذكر الله تعالى المؤلفة قلوبهم ضمن الثمانية المستحقين للزكاة كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ

---

(١٠٣) سنن أبي داود، كتاب الديات (١٧٤/٤)، ومختصر سنن أبي داود للمنذري (٣٠٩/٦).

(١٠٤) انظر: قالوا عن الإسلام ص ٩٧.

وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة/٦٠]، ولما نتابع السنة النبوية نرى تطبيق ذلك مع المشركين، فقد كان يغدق عليهم العطاء، فيعطيهم عطاء من لا يخشى الفقر؛ تأليفاً لقلوبهم، وإحساناً لنفوسهم، فالنفوس جبلت بحب من أحسن إليها، وهكذا كان فعله ﷺ مع الذين هم حديثو عهد بالإسلام، فمن السنة الفعلية ما أخرجه مسلم عن ابن شهاب قال: غزا رسول الله ﷺ غزوة الفتح (فتح مكة)، ثم خرج رسول الله ﷺ بمن معه من المسلمين، فاقتتلوا بحنين، فنصر الله دينه والمسلمين، وأعطى رسول الله ﷺ يومئذ صفوان بن أمية مائةً من النعم، ثم مائة، ثم مائة.

قال ابن شهاب: حدثني سعيد بن المسيب؛ أن صفوان قال: والله لقد أعطاني رسول الله ﷺ ما أعطاني، وإنه لأبغض الناس إليّ، فما برح يعطيني حتى إنه لأحب الناس إليّ(١٠٥).

وصح عنه ﷺ أنه قال: "إني أعطي قريشاً أتألفهم؛ لأنهم حديثو عهد بالجاهلية"(١٠٦).

وهذا العطاء من الخُمُس، إذ عقد البخاري كتاباً بعنوان (فرض الخُمُس)، ثم تحته باب: (ما كان النبي ﷺ يعطي المؤلفة قلوبهم وغيرهم من الخُمُس ونحوه)، كما في الحديث السابق.

---

(١٠٥) الصحيح (٤/١٨٠٦ح٢٣١٣)، كتاب الفضائل، باب ما سئل رسول الله ﷺ شيئاً قط فقال: لا.

(١٠٦) صحيح البخاري، كتاب فرض الخمس، باب ما كان النبي ﷺ يعطي المؤلفة قلوبهم وغيرهم من الخمس ونحوه (٦/٢٥٩) ح (٣١٤٦).

قال الحافظ ابن حجر: قوله: "من الخمس ونحوه" أي: من مال الخراج والجزية والفيء.

قال إسماعيل القاضي: في إعطاء النبي ﷺ للمؤلفة قلوبهم من الخُمُس دلالة على أن الخمس إلى الإمام يفعل فيه ما يرى من المصلحة... واختلف بعد ذلك من أين كان يعطي المؤلفة؟

فقال مالك وجماعة: من الخُمُس.

وقال الشافعي وجماعة: من خُمس الخُمُس.[107]

وأخرج الطبري بسند ثابت عن قتادة: وأما ﴿وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ [التوبة/٦٠]، فأناس من الأعراب ومن غيرهم كان النبي ﷺ يتألفهم بالعطية كيما يؤمنوا[108].

قال القرطبي: قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ لا ذكر للمؤلفة قلوبهم في التنزيل في غير قسم الصدقات؛ وهم قوم كانوا في صدر الإسلام ممن يظهر الإسلام، يتألفون بدفع سهم من الصدقة إليهم لضعف يقينهم.

قال الزهري: المؤلفة من أسلم من يهودي أو نصراني وإن كان غنياً. وقال بعض المتأخرين: اختلف في صفتهم؛ فقيل: هم صنف من الكفار يعطون ليتألفوا على الإسلام، وكانوا لا يسلمون بالقهر والسيف، ولكن يسلمون بالعطاء والإحسان....

---

(١٠٧) فتح الباري (٦/٢٥٢).

(١٠٨) تفسير الطبري (١١/٥٢٠).

وقيل: هم قوم من عظماء المشركين لهم أتباع يعطون ليتألفوا أتباعهم على الإسلام. قال: وهذه الأقوال متقاربة، والقصد بجميعها الإعطاء لمن لا يتمكن إسلامه حقيقة إلا بالعطاء؛ فكأنه ضرب من الجهاد. والمشركون ثلاثة أصناف: صنف يرجع بإقامة البرهان، وصنف بالقهر، وصنف بالإحسان، والإمام الناظر للمسلمين يستعمل مع كل صنف ما يراه سبباً لنجاته وتخليصه من الكفر[١٠٩].

ولقد تركت هذه السنة العملية من الكرم لمسات لا تنسى، وغرست في النفوس حب الخير، فكان لها الأثر الكبير المنير حتى انقلب البغض والكراهية إلى حب وتضحية، كما رأينا ذلك في صفوان بن أمية ﵁ وغيره.

ب- الزيارة:

زيارة الرسول ﷺ لعمه أبي طالب وهو مريض ودعوته له[١١٠]، وقد قال ابن حجر رحمه الله تعالى: (وفي الحديث جواز زيارة المشرك وعيادته)[١١١].

ولاشك أن جيرانه حظوا بمثل هذه الزيارات؛ لأنه كان يوصى خيراً بالجار.

عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال: "ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه"[١١٢].

---

(١٠٩) الجامع لأحكام القرآن (١٧٨/٨-١٧٩).

(١١٠) صحيح البخاري، كتاب مناقب الأنصار، باب قصة أبي طالب حديث رقم (٣٨٨٤).

(١١١) المصدر السابق ح(٢٢٣٩).

قال ابن حجر رحمه الله تعالى: (واسم الجار يشمل الجار المسلم والكافر والعابد والفاسق والصديق والعدو...)[113].

ج- الرعاية الاجتماعية في دفن الموتى:

لقد أرشدنا النبي ﷺ إلى وجوب دفن الميت حتى لو كان غير مسلم، فقد صح عن أبي طلحة الأنصاري أن نبي الله ﷺ أمر يوم بدر بأربعة وعشرين رجلاً من صناديد قريش، فقذفوا في طوى من أطواء بدر خبيث مخبث، وكان إذا ظهر على قوم أقام بالعرصة ثلاث ليال، فلما كان ببدر اليوم الثالث أمر براحلته فشد عليها رحلها ثم مشى واتبعه أصحابه، وقالوا: ما نرى ينطلق إلا لبعض حاجته حتى قام على شفة الركي، فجعل يناديهم بأسمائهم وأسماء آبائهم: يا فلان بن فلان ويا فلان بن فلان أيسركم أنكم أطعتم الله ورسوله، فإنا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً، فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً؟ قال: فقال عمر: يا رسول الله ما تكلم من أجساد لا أرواح لها؟ فقال رسول الله ﷺ: "والذي نفس محمد بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم"[114].

ذكره العلامة الألباني وقال: ويجب دفن الميت ولو كان كافراً[115].

---

(١١٢) متفق عليه، صحيح البخاري (٤٣١/١٨)، كتاب الأدب، باب الوصاة بالجار، ح (٥٥٥٦)، وصحيح مسلم (٦٥/١٣)، كتاب البر والصلة والأدب، باب الوصية بالجار، ح (٤٧٥٧).

(١١٣) ابن حجر، فتح الباري، (٥٤١/١٠) شرح حديث رقم (٦٠١٤).

(١١٤) صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب قتل أبي جهل (١٤٦١/٤) ح (٣٧٥٧).

(١١٥) أحكام الجنائز ص (١٣٢).

وكذلك قام النبي ﷺ بدفن رأس النفاق، فقد أخرج عبد الرزاق الصنعاني بسند صحيح عن سفيان بن عيينة عن عمرو ابن دينار قال: سمعت جابر بن عبد الله يقول: أتى النبي ﷺ عبد الله بن أُبي بن سلول بعد ما أدخل حفرته، فلقيه، فأمر به فأخرج، فوضعه على ركبتيه، وألبسه قميصه، ونفث عليه من ريقه(١١٦).

خامساً: إعطاؤه ﷺ الحريات: (١١٧)

من حق الإنسان أن يتمتع بالحريات التي أمر الله تعالى بها، وقد جاء الإسلام بضمان تلك الحريات، ومن أهم أسس تكريم غير المسلمين هو إعطاء الحريات، وقد أعطى النبي ﷺ لهم جميع الحريات وتشتمل على ما يلي:

١- عدم إكراه أحد على دينه.
٢- إعطاء الحرية لأصحاب الديانات أن يمارسوا شعائرهم في أماكن عبادتهم.
٣- إعطاؤهم الحرية في طعامهم وأحوالهم الشخصية في الزواج والطلاق وغيرها.

وقد تمتع المسلمون وغير المسلمين بأنواع الحريات وهي كما يلي:

---

(١١٦) المصنف، باب غسل الكافر وتكفينه (٦/٤٠) رقم (٩٩٣٨).

(١١٧) الحرية: لغة: من حرية الأصل. مختار الصحاح ص (١٣٠). وحرَّ الرجل يحر حرية إذا صار حراً. المصباح المنير للرافعي (١٢٨/١)، واصطلاحاً: عرفت الحرية بتعريفات كثيرة، واخترت منها ما قاله العلامة ابن بيّه وهي أنها: انطلاق وامتلاك للإرادة، ولكنه بعمل صالح وخلق كريم. حوار عن بعد حول حقوق الإنسان في الإسلام ص(٥٢).

١- حرية الدين:

لقد أعطى النبي ﷺ لغير المسلمين حريتهم الدينية؛ إذ عاش مع اليهود فترة من الزمن، كما كان يستقبل الوفود من النصارى كالسيد والعاقب من نصارى نجران، فقد دعاهم إلى الإسلام، وأعطاهم حرية العقيدة؛ إذ اعتمد على الثوابت القرآنية ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾ [البقرة/٢٥٦]، فليس لأحد أن يجبر غيره على أن يدخله في الإسلام.

وفي الحديث الشريف قال: قال رسول الله ﷺ لمعاذ بن جبل رضي الله عنه حين بعثه إلى اليمن: "إنك ستأتي قوماً من أهل الكتاب، فإذا جئتهم فادعهم إلى أن يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فإن هم أطاعوا لك بذلك فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة، فإن هم طاعوا لك بذلك فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم صدقةً تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم، فإن هم أطاعوا لك بذلك فإياك وكرائم أموالهم، واتق دعوة المظلوم، فإنه ليس بينها وبين الله حجاب"[١١٨].

فلم يجبرهم على الدخول في الإسلام.

قال النووي: وفيه أنه لا يحكم بإسلامه إلا بالنطق بالشهادتين، وفيه بيان عظم تحريم الظلم، وأن الإمام ينبغي أن يعظ ولاته، ويأمرهم بتقوى الله تعالى، ويبالغ في نهيهم عن الظلم، ويعرفهم قبح عاقبته، وفيه أنه يحرم

(١١٨) صحيح البخاري، كتاب الزكاة، باب أخذ الصدقة من الأغنياء وترد في الفقراء حيث كانوا، ح ١٤٩٦.

على الساعي أخذ كرائم المال في أداء الزكاة؛ بل يأخذ الوسط، ويحرم على رب المال إخراج شر المال[119].

يقول مارسيل بوازار عن الإسلام: أزال من العقيدة كل ما اعتبر زيفاً مخالفاً للتوحيد بالمعنى الدقيق للكلمة، وأتاح منطق تعاليمه القوي، وبساطة عقيدته، وما يرافقها من تسامح، أتاح كل هذا للشعوب التي فتح بلادها حرية دينية تفوق بكثير تلك التي أتاحتها الدول المسيحية لنفسها[120].

ويقول الكاتب الأمريكي المعاصر أندروا باترسون: إن العنف باسم الإسلام ليس من الإسلام في شيء؛ بل إنه نقيض لهذا الدين الذي يعني السلام لا العنف[121].

٢- حرية التملك:

وهذه الحرية عامة للمسلمين وغير المسلمين، فقد أطلقت السنة النبوية عنان التملك مهما بلغ المالك من الأموال والقناطير المقنطرة، بشرط أن يؤدي المالك حق الزكاة، وشجع على التملك حيث صرح بأن ذلك خير

---

(١١٩) شرح النووي ١/١٩٧-١٩٨.

(١٢٠) قالوا عن الإسلام ص(٢٧٤).

(١٢١) انظر: بول فندلي، لا سكوت بعد اليوم، الطبعة الثانية (بيروت: شركة المطبوعات ٢٠٠١م)، ص(٩١).

من الذي لا يملك شيئاً، وثبت عنه ﷺ: "اليد العليا خير من اليد السفلى"[122].

كما أعطى الإسلام حرية التملك لغير المسلمين، فلهم الحرية أن يتملكوا ما يشاؤون من الأموال مهما كثرت وتعددت، وقد عرف اليهود باقتنائهم الثروات الكبيرة ولا أحد يعترض على ذلك، حيث قال الأستاذ الفرنسي جاك ريسلر: كانت جميع الأديان لها حقٌّ الممارسة المطلقة في عبادها، وكان اليهود لديهم مطلق الحرية في اقتناء الثروات، ووصلوا أحياناً إلى مراكز سامية[123].

يقول المستشرق النمساوي بارتولد (١٨٧٩-١٩٣٠م): كانت في بلاد الخلافة الممتدة من رأس سان فنسنت الواقعة جنوبي البرتغال إلى سمرقند مؤسسات مسيحية غنية، قد حافظت على أملاكها غير المنقولة الموقوفة عليها[124].

٣- حرية الرأي:

إن حرية إبداء الرأي تطلق عقل الإنسان ليفكر في ملكوت الله تعالى، وفي مصالحه في الدنيا والآخرة، وأما إذا ألغيت هذه الحرية فإنها تؤثر على التفكير وتشله شلاً، وقد احترم النبي ﷺ الرأي وسمع من الصحابة رضي الله عنهم، وما وجد من رأي سديد أخذ به، مما شجع على إبداء الرأي بكل

(١٢٢) متفق عليه، صحيح البخاري-كتاب الزكاة-باب لا صدقة إلا عن ظهر غنى (ح ١٤٢٧)، وصحيح مسلم-الزكاة-باب أفضل صدقة الشحيح (٧١٧/٢ ح ١٠٣٣).

(١٢٣) انظر قالوا عن الإسلام ص (٢٩٠).

(١٢٤) تاريخ الحضارة الإسلامية ص (٥٤).

وضوح دون تردد، كما حصل في غزوة بدر عندما أدلى برأيه الصحابي الحباب بن المنذر رضي الله عنه، وكذلك عندما أشار سلمان الفارسي رضي الله عنه بحفر الخندق، فقد أخذ النبي صلى الله عليه وسلم بتلك الآراء، وفي ذلك تربية على حرية إبداء الرأي للمصلحة العامة.

وكذلك كان يحترم الآراء الصحيحة التي تصدر عن أهل الكتاب ويأخذ بها، كما سيأتي في المبحث الرابع في موافقته لأهل الكتاب.

ومن مقتضيات العدل والإنصاف مع أهل الكتاب قبول النصيحة والرأي الصحيح الذي يبدونه، وقد ضرب النبي عليه الصلاة والسلام المثل الأعلى في ذلك، ومنه ما جاء عن عبد الله بن يسار عن قتيلة امرأة من جهينة، أن يهودياً أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: إنكم تنددون، وإنكم تشركون، تقولون: ما شاء الله وشئت، وتقولون: والكعبة؛ فأمرهم النبي صلى الله عليه وسلم إذا أرادوا أن يحلفوا أن يقولوا: ورب الكعبة، ويقولوا: ما شاء الله ثم شئت.[١٢٥]

وفي هذا الحديث بيان حرية الرأي والاستفادة من ذلك الرأي؛ لأنه حق.

وينبغي أن يعلم أن حرية الرأي ليس على إطلاقها فهي مقيدة بضوابط، وقد ألمح معالي العلامة الشيخ عبد الله بن بيّه إلى ذلك فقال: ولا شك أن لحرية الرأي في الإسلام قيوداً وضوابط منهجية، مثل: التحرّي في المعطيات، وفي المسالك المبلّغة إلى الحق، والإخلاص في إرادة

---

(١٢٥) أخرجه النسائي (السنن-كتاب الأيمان والنذور -باب الحلف بالكعبة، ح ٣٧٧٣).

النفع العام، وإلا انقلبت إلى ضروب من المغالطة والتغرير والأنانية، كما أن لها قيوداً أخلاقية، مثل: الصدق في تبليغ الـــرأي ونقلـــه، والحســـن بالإقناع به، وإلا انقلبت كذباً وغشاً وتجريحاً ولجاجة، فتخرج إذن عـــن الدائرة التي رسمت لها في الاستعمال الشائع، وما نعتمد في هذا الســـياق هو الحرية بتلك الضوابط والقيود(١٢٦).

من أجل ذلك نجد أن كثيراً من غير المسلمين الذين ينشدون الحريـــة يحبون الإسلام، قال الأستاذ علي يول الدانمركي: إن التسامح الواســـع الأفق الذي يتسم به الإسلام في معاملة الأديان الأخرى يجعله محبباً لدى جميع من يحبون الحرية(١٢٧).

٤- حرية العمل والتعليم:

والفرد له حرية اختيار العمل والتعليم ســـواء في مجـــال التجـــارة أم الصناعة أم الزراعة أم التعليم، وفي ذلك إنماء لمواهب الإنسان ورغباتـــه، فيكون اندفاعه وإنتاجه أكثر وأكبر، بخلاف أن يعمل بعمل ليس له فيـــه رغبة، فإن إنتاجه سيكون محدوداً؛ لذا نجد السنة النبوية أعطت الحرية في مزاولة أنواع الأعمال والحـــرف التي شرعها الله تعالى لعباده، وقد حبّر المؤرخ الخزاعي أصناف الأعمال والحرف في كتابه: (تخريج الـــدلالات السمعية على ما كان في عهد رسول الله ﷺ من الحـــرف والصـــنائع والعملات الشرعية)، وكذلك الكتاني في كتابه: (التراتيب الإدارية).

---

(١٢٦) حوار عن بعد حول حقوق الإنسان في الإسلام ص(٥٩).

(١٢٧) انظر: قالوا عن الإسلام ص(٢٦٠).

لقد أعطى النبي ﷺ هذه الحرية لغير المسلمين، فقد كان كثير من غير المسلمين يقومون بالمهن المختلفة كالزراعة والتجارة والصناعة؛ بل كان النبي ﷺ يقرهم على ذلك، بل ويتعامل معهم كما سيأتي في تعامله الاقتصادي، كما كان لهم حرية التعليم لأمور دينهم؛ بل كان بعضهم يعلم أبناء المسلمين الكتابة وبعض الصناعات، فهذه الحرية حق من حقوقهم.

وقد فتحت السنة النبوية آفاقاً واسعةً في مجال حرية التعليم والبحث العلمي، إذ حلَّقت في رحاب السموات السبع وما فوقها، فوصل ﷺ إلى مشاهدات ومعلومات ما لم يصل إليه العلم الحديث إلى يومنا هذا، ففي رحلته الفضائية في الإسراء والمعراج فتح لنا الضوء لرؤية مفاتيح الاستنباط للوصول إلى مبادئ وشذرات من علم السماء.

قال المستشرق الفرنسي كوستاف لوبون: الإسلام من أكثر الأديان ملاءمة لاكتشافات العلم[(١٢٨)].

وقال الضابط البريطاني ج.ف.فيلويز: التقدم العلمي المعاصر في العصر الحاضر والمنجزات العلمية تتفق تماماً مع مبادئ الإسلام[(١٢٩)].

سادساً: الدفاع والقتال عن أهل الذمة:

بما أن أخذ الجزية من أهل الذمة كان من أسبابه حفظهم والدفاع عنهم، فقد أوصى بذلك ﷺ ودافع عنهم في عدة مواطن، فقد صحَّ عن

---

(١٢٨) حضارة العرب ص (١٢٦).

(١٢٩) انظر: قالوا عن الإسلام ص (٤٦٤).

عمر رضي الله عنه قال: "وأوصيه بذمة الله وذمة رسوله ﷺ؛ أن يوفى لهم بعهدهم، وأن يقاتل من ورائهم، ولا يكلفوا إلا طاقتهم".[130]

قال ابن حجر: في الحديث الحض على الوفاء بالعهد، وحسن النظر في عواقب الأمور، والإصلاح لمعاني المال وأصول الاكتساب.[131]

قال العلامة العيني: قوله: "بذمة الله" أي عهد الله. قوله: "وأن يقاتل من ورائهم" أراد به دفع الكافر الحربي ونحوه عنهم. قوله: "ولا يكلفوا" على صيغة المجهول من التكليف، ومعناه أن لا يزيدوا على مقدار الجزية[132].

قال الشافعي – رحمه الله تعالى-: وينبغي للإمام أن يظهر لهم أنهم إن كانوا في بلاد الإسلام أو بين أظهر أهل الإسلام منفردين أو مجتمعين فعليه أن يمنعهم من أن يسبيهم العدو أو يقتلهم منعه ذلك من المسلمين، وإن كانت دارهم وسط دار المسلمين وذلك أن يكون من المسلمين أحد بينهم وبين العدو فلم يكن في صلحهم أن يمنعهم فعليه منعهم؛ لأن منعهم منع دار الإسلام دونهم، وكذلك إن كان لا يوصل إلى موضع هم فيه منفردون إلا بأن توطأ من بلادهم شيء كان عليه منعهم وإن لم يشترط ذلك لهم[133].

---

(١٣٠) صحيح البخاري (٣/١١١١)، كتاب الجهاد، باب يقاتل عن أهل الذمة ولا يسترقون، ح(٣٠٥٢).

(١٣١) فتح الباري (٦/٢٦٧).

(١٣٢) عمدة القاري (١٤/٢٩٧).

(١٣٣) الأم (٤/٢٠٧)، فصل ما يعطيهم الإمام من المنع من العدو.

ولهم حفظ أعراضهم، فيجب كف الأذى عنهم، وتحرم غيبتهم؛ لأنهم بعقد الذمّة وجب لهم ما للمسلمين، كما قال ابن عابدين(١٣٤)، بل قال أيضاً: (إنه بعقد الذمّة وجب له - أي للذمّي- ما لنا، فإذا حرمت غيبة المسلم حرمت غيبته؛ بل قالوا: إنّ ظلم الذمّي أشدّ).(١٣٥)

وكذلك نهى عن ضرب أهل الكتاب لو صدر منهم قول خطأ، فقد صحَّ عن أبي هريرة ﵁ قال: بينما يهودي يعرض سلعته أعطي بها شيئاً كرهه، فقال: لا والذي اصطفى موسى على البشر، فسمعه رجل من الأنصار، فقام فلطم وجهه، وقال: تقول: والذي اصطفى موسى على البشر، والنبي ﷺ بين أظهرنا، فذهب إليه فقال: أبا القاسم إن لي ذمة وعهداً فما بال فلان لطم وجهي؟ فقال: لم لطمت وجهه؟ فذكره فغضب النبي ﷺ حتى رؤي في وجهه، ثم قال: "لا تفضلوا بين أنبياء الله، فإنه ينفخ في الصور فيصعق من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله، ثم ينفخ فيه أخرى فأكون أول من بعث، فإذا موسى آخذ بالعرش فلا أدري أحوسب بصعقته يوم الطور أم بعث قبلي، ولا أقول إن أحداً أفضل من يونس بن متّى"(١٣٦).

إن غضب النبي ﷺ على ذلك الصحابي الأنصاري ﵁ هو عقوبة على لطم اليهودي، وكان الصحابة ﵃ يغتمون إذا غضب النبي ﷺ؛ لأنه لا

---

(١٣٤) رد المحتار على الدر المختار (٣/٢٤٤).

(١٣٥) رد المحتار على الدر المختار (٣/٢٥٠).

(١٣٦) صحيح البخاري (٣/١٢٥٤)، كتاب التفسير، باب قول الله تعالى: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ ح(٣٢٣٣).

يغضب إلا من أمر خطير، ذي شر مستطير، فهو يزجر بـــذلك زجـــراً شديداً عن ذلك الاعتداء، وهذا من شدة عنايته بأهل الذمة.

سابعاً: احترامه ﷺ الموتى منهم:

مما تقدم عرفنا احترام النبي ﷺ لأهل الكتاب في حياتهم، ولم يكتـــف بذلك؛ بل كان احترامهم عند وفاتهم، مما يدل على أن هذا التعامل ليس من المجاملات؛ بل هو نابع من عقيدة عظيمة تراعي الإنسان في حياتـــه ومماته بغض النظر عن الاختلاف الثقافي والديني، كما ثبت عـــن عبـــد الرحمن بن أبي ليلى أنه قال: كان سهل بن حنيف وقـــيس بـــن ســـعد قاعدين، فمرُّوا عليهما بجنازة فقاما، فقيل لهما: إنهما من أهل الأرض – أي من أهل الذمة– فقالا: إن النبي ﷺ مرت به جنازة فقام. فقيل له: إنها جنازة يهودي. فقال: "أليست نفساً؟"[١٣٧].

وصحَّ عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: مر بنا جنازة فقام لها الـــنبي ﷺ وقمنا فقلنا: يا رسول إنها جنازة يهودي فقـــال: "إذا رأيـــتم الجنـــازة فقوموا". [١٣٨]

قال الحافظ ابن حجر: واستدل بحديث الباب على جـــواز إخـــراج جنائز أهل الذمة نهاراً غير متميزة عن جنائز المسلمين[١٣٩].

---

(١٣٧) متفق عليه، صحيح البخاري (٥/٧٢)، كتاب الجنائز، باب باب من قام لجنازة يهودي، ح(١٢٢٩). وصحيح مسلم (٥/٦٨)، كتاب الجنائز، باب القيام للجنازة، ح(١٥٩٦).

(١٣٨) صحيح البخاري –كتاب الجنائز– باب من قام لجنازة يهودي، ح(١٣١٢).

(١٣٩) فتح الباري (٣/ ٢١٦).

ولا غرابة أنه دين الإسلام الذي يحترم النفس في حياتها وموتها ولا يفرق في حق المسلمين ولا في حق أهل الكتاب.

هكذا أرسى النبي ﷺ مثل هذه الدعائم في تكريم أهل الكتاب، حتى عند الممات كي لا يظن بعضهم أن المصالح والعلاقات الشخصية تقتضي حسن التعامل مع الأحياء منهم؛ بل كان الأمر فوق ذلك إذ أحسن التعامل مع الأموات منهم أيضاً.

ثامناً: تعامله ﷺ مع غير المسلمين في اجتناب الحرب:

لا تخفى على البشرية مغبة الحرب وويلاتها وآثارها، فكيف بمن أُرسل رحمة للعالمين؟ لقد كان ﷺ حريصاً على درء الحروب ودفع دمارها ووبالها، وفي الوقت نفسه كان حريصاً على دخول الناس في دين الله تعالى أفواجاً، من أجل ذلك كان مبدأ السلام عنده هو الأصل، وأما الحرب فهو الاستثناء للضرورة القصوى، ثم يؤول إلى السلام، ولهذا نرى أغلب الغزوات كان يحفها السلم، إذ قاد النبي ﷺ (٢٨) غزوة، وكان القتال في (٩) غزوات، وهذه الغزوات التسع لم تكن مباشرة بدون دعوة، بل كان رسول الله ﷺ يدعوهم إلى توحيد الله تعالى والهداية والسلم، وقد ثبت عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال: ما قاتل رسول الله ﷺ قوماً إلا دعاهم[١٤٠].

وهكذا كان يعلم أصحابه حين قال الرسول ﷺ لعلي رضي الله عنه في غزوة خيبر: "على رسلك حتى تنزل بساحتهم، ثم ادعهم إلى الإسلام،

(١٤٠) أخرجه الإمام أحمد في المسند ١٣٦/١.

وأخبرهم بما يجب عليهم، فوالله لأن يُهدى بك رجل واحد خير لك من حمر النعم"[141].

قال الحافظ ابن حجر: يؤخذ منه أن تألف الكافر حتى يسلم أولى من المبادرة إلى قتله[142].

وبعض الغزوات وقع فيها الصلح دون أن يستجيبوا للدخول في الإسلام، كما سيأتي في ذكر صلح الحديبية وغيرها.

من أجل ذلك فقد سلك نبي الرحمة ﷺ جميع السبل لاجتناب الحرب، فقد كان ينهى عن تمني لقاء العدو، ويأمر بالرفق في كل الأمور، ويحذر من العنف، كما تقدم في أول الأحاديث الشريفة.

تاسعاً: الإجارة والاستئجار:

وكان ﷺ يستأجر بعض الخدم من اليهود فقد صحَّ عن أنس رضي الله عنه قال: كان غلام يهودي يخدم النبي ﷺ[143].

ومن المشهور عن تعامله مع الخدم أنه كان في غاية الإحسان.

ومن التعامل الاجتماعي جواز أن يؤجر المسلم نفسه للذمي، فقد ذكر ابن قدامة في المغني أن المسلم لو أجر نفسه للذمي في عمل معين في الذمة، كخياطة ثوب وقصارته جاز ذلك بغير خلاف نعلمه؛ لأن علياً

(١٤١) صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب دعاء النبي ﷺ إلى الإسلام والنبوة ح(٢٧٨٣).

(١٤٢) فتح الباري (٧/ ٥٤٦).

(١٤٣) صحيح البخاري (١/٤٥٥) كتاب الجنائز، باب إذا أسلم الصبي فمات هل يصلى عليه؟ وهل يعرض على الصبي الإسلام؟ ح (١٢٩٠).

ﷺ أجر نفسه من يهودي يستسقيه كل دلو بتمرة، وأتى به النبي ﷺ فأخبره بذلك فلم ينكره، وروي أن رجلاً من الأنصار فعل ذلك أيضاً، وأنه عقد معاوضة فأشبه البيع(١٤٤).

وعن محمد بن عبد الحكم أنه سأل الإمام أحمد عن الرجل المسلم يحفر لأهل الذمة قبراً بكراء، قال: لا بأس به(١٤٥).

عاشراً: تعامله مع المشركين:

لقد سبق تعامل النبي ﷺ للمشركين تعامله مع أهل الكتاب، وما ذكر في أهل الكتاب من تعامل في البيع والشراء والرهن وغيره فقد كان قائماً مع المشركين، إضافة إلى ما يلي:

١- الاستسقاء للمشركين:

من رحمته ﷺ بالمشركين كانوا إذا طلبوا منه الاستسقاء فإنه يدعو الله تعالى لهم بذلك، ويستجاب له على الرغم من عداوتهم له، فقد أخرج البخاري بسنده عن عبد الله بن مسعود قال: إنما كان هذا لأن قريشاً لما استعصوا على النبي ﷺ دعا عليهم بسنين كسني يوسف، فأصابهم قحط وجهد حتى أكلوا العظام، فجعل الرجل ينظر إلى السماء فيرى ما بينه وبينها كهيئة الدخان من الجهد، فأنزل الله ﷻ: ﴿فَٱرۡتَقِبۡ يَوۡمَ تَأۡتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٖ مُّبِينٖ ﴿١٠﴾ يَغۡشَى ٱلنَّاسَۖ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿١١﴾﴾ [الدخان/١٠-١١]، قال: فأتى رسول الله ﷺ فقيل له: يا رسول الله استسق الله لمضر فإنها قد

(١٤٤) المغني (٨/٤٩٥).

(١٤٥) أحكام أهل الذمة (١/١٩٨).

هلكت، قال: مضر؟ إنك لجريء، فاستسقى، فسُقوا، فنـــزلت: ﴿إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ ﴿١٥﴾﴾ [الـدخان/١٥]، فلما أصابتهم الرفاهية عادوا إلى حـالهم حـين أصابتهم الرفاهية، فأنزل الله ﷻ: ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴿١٦﴾﴾ [الدخان/١٦] قال: يعني يوم بدر(١٤٦).

هكذا كانت رحمته ﷺ في الإحسان مع المشركين، ولقد آتت ثمارها بأن رأوا صدق هذا النبي ﷺ ولطفه بهم وحنانه عليهم، مما جعل الكـثير منهم يعلنوا كلمة التوحيد الخالدة، وغدوا قادة الأُمم بنعمة هذا الـدين، كل ذلك بفضل القيام بحق الناس من الدعوة وطلب الخير من الله تعـالى حتى ولو كانوا مشركين، وقد كان دعاء النبي ﷺ تطبيقاً عملياً لهذا الحق الذي ترك أثره في النفوس، وأبرز معجزة نبوية في جلب الخـير ودفـع الشر، وفي هذا العمل يبرز حكم شرعي في جواز الاستسقاء للمشركين من أجل الدعوة إلى الله تعالى.

٢- عدم أخذ الخراج على مزارع مكة المكرمة:

ولا خراج على مَزارع مكة وَإن فتحت عنوةً وقيل: يضرب عليها الخراج كسائر أرض العنوة، وهذا القول من أقبح الغلط في الإسلام، وهو مردود على قائله، ومكة أجل وأعظم من أن يضرب على أرضها الجزية، وهي حرم الله وأمنه ودار نسك الإسلام، وقد أعاذها سبحانه وتعالى مما هو دون الخراج بكثير، وهذا القول استُدرك على رسول الله ﷺ وعلى

---

(١٤٦) الصحيح (٨/٤٣٤-٤٣٥ ح٤٨٢١) كتاب التفسير، سورة الـدخان، بـاب ﴿ يَغْشَى ٱلنَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ الآية، وأخرجه مسلم في صحيحه (٤/٢١٥٦-٢١٥٧).

أبي بكر وعمر وعثمان والأئمة بعدهم إلى زمن هذا القائل، وكيف يسوغ ضرب الخراج الذي هو أخو الجزية وشقيقها ورضيع لبنها على خير بقاع الله وأحبها إلى الله ودار النسك، ومتعبَد الأنبياء، وقرية رسل الله التي أخرجته، وحرم رب العالمين وأمنه ومحل بيته، وقبلة أهل الأرض؟! قال أبو عبيد: صحَّت الأخبار عن رسول الله ﷺ أنه افتتح مكة وأنه منَّ على أهلها، فردها عليهم فلم يقسمها ولم يجعلها فيئاً، فرأى بعض الناس أن هذا الفعل جائز للأئمة بعده(١٤٧).

٣- حق غير المسلم في أخذ صداق زوجته إذا أسلمت:

فإذا أسلمت المرأة وتركت زوجها فلهذا الزوج حق ما دفعه من الصداق، وهذا حق لغير المسلمين، وكذلك إذا أسلم الزوج وبقيت زوجته مع الكفار فإن على الكفار أن يدفعوا حق الصداق للرجل المسلم، قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَـٰتُ مُهَـٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَـٰنِهِنَّ ۖ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَـٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ ۖ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ۖ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُوا۟ ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۚ وَلَا تُمْسِكُوا۟ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ وَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقُوا۟ ۚ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ ۖ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [الممتحنة/١٠].

أخرج الطبري بسنده الصحيح عن مجاهد في قوله تعالى: ﴿وَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقُوا۟ ۚ﴾ قال: ما ذهب من أزواج أصحاب محمد ﷺ إلى الكفار فليعطهم الكفار صدقاتهن وليمسكوهن، وما ذهب من أزواج الكفار إلى النبي ﷺ فمثل ذلك في صلح بين محمد ﷺ وبين قريش.

---

(١٤٧) أحكام أهل الذمة (١/ ١٠٠).

وأخرج الطبري أيضاً بسند ثابت عن قتادة نحوه[١٤٨].

٤- رد الجميل للمشركين من الأقارب:

لقد كان ﷺ في غاية الاهتمام بدعوة عمه أبي طالب الذي دافع ونافح عن ابن أخيه ضد الكفار، ولم يكتف بدعوته لأنه لم يوفق لذلك، فلجأ إلى الاستغفار لعمه، فقد أخرج البخاري بسنده عن سعيد بن المسيب عن أبيه قال: لما حضرت أبا طالب الوفاةُ جاءهُ رسول الله ﷺ فوجد عنده أبا جهل وعبد الله بن أبي أُمية بن المغيرة فقال: أي عمّ، قل لا إله إلا الله كلمةً أحاجّ لك بها عند الله. فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية: أترغب عن ملة عبد المطلب؟ فلم يزل رسول الله ﷺ يعرضها عليه ويُعيدانه بتلك المقالة حتى قال أبو طالب آخر ما كلمهم: على ملة عبد المطلب، وأبى أن يقول لا إله إلا الله. قال: قال رسول الله ﷺ: لأستغفرن لك ما لم أُنه عنك. فأنزل الله: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ﴾ [التوبة/١١٣]، وأنزل الله في أبي طالب فقال لرسول الله ﷺ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ﴾ [القصص: ٥٦][١٤٩].

قال ابن حجر: قوله: "والله لأستغفرن لك ما لم أنه عنك" قال الزين ابن المنير: ليس المراد طلب المغفرة العامة، والمسامحة بذنب الشرك، وإنما المراد تخفيف العذاب عنه كما جاء مبيناً في حديث آخر. قلت: وهي

---

(١٤٨) التفسير الصحيح (٤/٤٧٦).

(١٤٩) صحيح البخاري (٨/٣٦٥) كتاب التفسير، سورة القصص ح(٤٧٧٢)، صحيح مسلم (١/٥٤) كتاب الإيمان، باب الدليل على صحة إسلام من حضره الموت ح(٢٤).

غفلة شديدة منه، فإن الشفاعة لأبي طالب في تخفيف العــذاب لم تــرد وطلبها لم ينه عنه، وإنما وقع النهي عن طلب المغفرة العامة، وإنما ســاغ ذلك للنبي ﷺ اقتداء بإبراهيم في ذلك ثم ورد نسخ ذلك(١٥٠).

قال النووي: وفيه جواز الحلف من غير استحلاف، وكان الحلف هنا لتوكيد العزم على الاستغفار، وتطييباً لنفس أبي طالب، وكانت وفاة أبي طالب بمكة قبل الهجرة بقليل(١٥١).

هذا بالنسبة لعمه فقد قام بحق ردِّ الجميل عملياً، أما بالنسبة لأُمه فقد تاقت نفسه إلى زيارتها بعد مماتها، فقد أخرج مسلم بسنده عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: "استأذنت ربي أن أستغفر لأُمي فلم يــأذن لي، واستأذنته أن أزور قبرها فأذن لي"(١٥٢).

وزيارة النبي ﷺ لقبر أُمه واستئذانه أن يستغفر لها لهو خير دليل علــى اهتمام النبي ﷺ بغير المسلمين من الأقربين، وأن التطبيق النبوي برهــان على ذلك، فإنه قام بحق الأُم تطبيقاً لزيارة أُمه، وهو مــن الــبر بعــد الممات.

وقد استنبط العلماء من هذا الحديث جواز زيــارة المشــركين مــن الأقربين في الحياة وبعد الوفاة.

(١٥٠) فتح الباري (٥٠٧/٨-٥٠٨).

(١٥١) شرح النووي على صحيح مسلم (٢١٥/١).

(١٥٢) الصحيح (٦٧١/٢ ح ٩٧٦) كتاب الجنائز، باب استئذان النبي ﷺ ربه ﷻ في زيارة قبر أمه.

قال النووي: قوله ﷺ: "استأذنت ربي أن أستغفر لأُمي فلم يأذن لي، واستأذنته أن أزور قبرها فأذن لي"، فيه جواز زيارة المشركين في الحياة وقبورهم بعد الوفاة؛ لأنه إذا جازت زيارتهم بعد الوفاة ففي الحياة أولى، وقد قال الله تعالى: ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ [لقمان/١٥]، وفيه النهي عن الاستغفار للكفار.

قال القاضي عياض رحمه الله: سبب زيارته ﷺ قبرها أنه قصد قوة الموعظة والذكرى بمشاهدة قبرها، ويؤيده قوله ﷺ في آخر الحديث: "فزوروا القبور فإنها تذكركم الموت"[١٥٣].

٥- صلة الأم المشركة وغيرها:

كما كان يسمح بالصلة وإكرام الأم المشركة، وذلك للاعتراف بمكانة الأم حتى ولو كانت مشركة، وألا ينكر فضلها، ولعلها أيضاً تدخل في الإسلام.

أخرج البخاري بسنده عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما قالت: أتتني أمي راغبة في عهد النبي ﷺ، فسألت النبي ﷺ: آصلها؟ قال: "نعم"[١٥٤].

قال السيوطي: واختلف في إسلامها، والأكثر أنها ماتت مشركة[١٥٥].

---

(١٥٣) شرح النووي على صحيح مسلم (٤٥/٧).

(١٥٤) الصحيح، كتاب الأدب، باب صلة الوالد المشرك، رقم (٥٩٧٨).

(١٥٥) الديباج على مسلم (٧٦/٣).

قال الخطابي: في الحديث أن الرحم الكافرة توصل من المـــال ونحـــوه كما توصل المسلمة، ويستنبط منه وجوب نفقـــة الأب الكـــافر والأُم الكافرة وإن كان الولد مسلماً.

وقال الحافظ ابن حجر: وفيه موادعة أهل الحرب ومعاملتهم في زمن الهدنة والسفر في زيارة القريب، وتحري أسماء رضي الله عنـــها في أمـــر دينها[١٥٦].

وهذا الرفق النبوي يتجلى فيه حكم شرعي وهو: وجوب صـــلة الأُم المشركة والنفقة عليها فما بالك لو كانت الأُم مؤمنة؟

وكذلك صلة الأقارب من غير المسلمين، فقد أخرج عبد الرزاق بسند جيد عن الثوري عن ليث عن نافع عن ابن عمر، أن صفية ابنـــة حيـــي أوصت لابن أخ لها يهودي.

وأخرج عبد الرزاق بسند صحيح عن ابن جريج قال: قلت لعطاء: ما قوله: ﴿إِلَّآ أَن تَفۡعَلُوٓاْ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِكُم مَّعۡرُوفٗا﴾ [الأحزاب/٦]، قال: العطاء. قلت له: أعطاء المؤمن للكافر بينهما قرابة؟ قال: نعم، عطاؤه إياه حياً، ووصـــيته له[١٥٧].

وفي تفسير قوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن تَفۡعَلُوٓاْ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِكُم مَّعۡرُوفٗا﴾ أخرج عبد الرزاق بسند صحيح عن معمر عن قتـــادة في قولـــه: ﴿إِلَّآ أَن تَفۡعَلُوٓاْ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِكُم مَّعۡرُوفٗا﴾، قال: إلا أن يكون لك ذو قرابة ليس علـــى دينـــك،

---

(١٥٦) فتح الباري (٥/٢٣٤).

(١٥٧) المصنف (٦/٣٣، رقم ٩٩١٤ و٩٩١٦).

فتوصي له بالشيء، هو وليك في النسب، وليس وليك في الدين، قـــال: وقال الحسن مثله[١٥٨].

٦- استئجار الدليل:

وفي الهجرة إلى المدينة ومعه أبو بكر الصديق استأجرا عبـــد الله بـــن أُريقط، وكان هادياً خريتاً ماهراً بالدلالة إلى أرض المدينة، وأمناه علـــى ذلك مع أنه كان على دين قومه، وسلَّما إليه راحلتيهما، وواعداه غـــار ثور بعد ثلاث، فلما دخلا في الغار أعمى الله على قريش خبرهما، فلـــم يدروا أين ذهبا.

إن استئجار عبد الله بن أُريقط وهو من المشركين يدل علـــى ثقـــة النبيﷺ بالآخر إذا عُلم منه ذلك، وهذه هي الحكمة في التعامل مع الآخر وتبادل المنافع إذا أُمِن جانبه.

٧- قبول الهدايا من ملوك غير المسلمين:

عن علي بن أبي طالب ﷺ قال: "أهدى كســـرى لرســـول الله ﷺ، فقبل منه، وأهدى له قيصر فقبل منه، وأهدت له الملوك فقبل منها"[١٥٩]، وقال النبي ﷺ لبلال ﷺ: "ألم تر إلى الركائب المناخات الأربع، فإن لك رقابهن وما عليهن، فإن عليهن كسوة وطعاماً أهداهن إلي عظيم فـــدك

---

(١٥٨) المصنف (٦/ ٣٣ رقم ٩٩١٨).

(١٥٩) أخرجه الترمذي (السنن ١٣٣/٣، أبواب السير، باب ما جاء في قبـــول هـــدايا المشركين، ح١٥٧٦)، وأحمد في المسند (١٤٤/٢و٣٩٧ ح ٧٤٧و١٢٣٥).

فاقبضهن واقض دينك"[١٦٠]، وعن علي ﷺ قال: "إن أكيدر دومة الجندل أهدى إلى النبي ﷺ ثوب حرير، فأعطاه علياً، وقال: شققه بين الفواطم"[١٦١].

فإن قيل: إن ما ذكر هو رفق في السلم أما في الحرب فلا يمكن الرفق، فالجواب لقد جاء النبي ﷺ بسماحته ورفقه ولطفه في السلم والحرب، أما السلم فقد تقدم ذكر تعامله، وأما في الحرب فقد كان تعامله ﷺ مع العدو حسب التوجيهات الربانية الحكيمة، والإرشادات القرآنية العظيمة، فهو يحاور العدو مباشرة، أو بإرسال الرسل وكتابة الرسائل، ويسعى إلى السلم والصلح، فإذا أصر العدو على الحرب فإنه يعدُ العُدة لذلك، ناهياً عن قتل النساء والأطفال والشيوخ المقعدين، ويعطي حق الأمان للكافر إذا كان رسولاً أو إذ أسلم، ولا يعزِم الحرب إلا لأسباب ضرورية.

ولقد أدرك ذلك المؤرخ والعالم الأمريكي ول ديورانت إذ قال: كان النبي [ﷺ] من مهرة القواد.. ولكنه كان إلى هذا سياسياً محنكاً، يعرف كيف يواصل الحرب بطريقة السلم[١٦٢]. وقد جعل الحرب عند الضرورة مرحلة للوصول إلى السلم كما في الوقائع التالية:

أولاً: إن كثيراً من الغزوات لم يقع فيها قتال، وإنما كان صلحاً، فقد صحَّ عن بُريدة الأسلمي ﷺ قال: غزا رسول الله ﷺ تسع عشرة غزوة

---

(١٦٠) أخرجه أبو داود (السنن١٧٢/٣، كتاب الخراج والإمارة والفيء، باب في الإمام يقبل هدايا المشركين ح ٣٠٥٥).

(١٦١) صحيح مسلم (١٦٤٥/٣)، كتاب اللباس والزينة، باب تحريم استعمال الذهب والفضة على الرجال والنساء، ح (٢٧٠١).

(١٦٢) قصة الحضارة (٣٨/١٣).

قاتل في ثمان منهن[١٦٣]. وهنَّ كما قال موسى بن عقبة: بدر ثم أُحد ثم الأحزاب ثم المصطلق ثم خيبر ثم مكة ثم حُنين ثم الطائف. ذكره الحافظ ابن حجر ثم قال: وأهمل غزوة بني قريظة؛ لأنه ضمَّها إلى الأحزاب، لكونها كانت في إثرها[١٦٤]. وهذا العدد ذكره أيضاً ابن إسحاق[١٦٥]، وابن سعد[١٦٦]، وابن حزم[١٦٧].

وقد كان مجموع القتلى في جميع الغزوات قليلاً جداً بالنسبة للحروب السابقة واللاحقة، يقول الدكتور محمد عمارة: فخلال ثمان وعشرين غزوة في خلال ثماني سنوات، بدأت بغزوة الأبواء سنة٢هـ، وانتهت بغزوة تبوك سنة ٩هـ نكشف من الأرقام المعبرة ضآلة حجم القتل والقتال، فضحايا جميع تلك الغزوات الثمانية والعشرين لم يبلغوا أربعمائة قتيل، (٢٠٣) من المشركين، و(١٨٣) من المسلمين! وحتى إذا أضفنا إليهم قتلى يهود بني قريظة – وهو ما لا يجوز؛ لأنهم قتلوا بقضاء التحكيم الذي ارتضوه لقاء غدرهم وخيانتهم ونقضهم للعهد في زمن غزوة الخندق- فإن رقم كل ضحايا جميع تلك الغزوات لا يصل إلى الألف[١٦٨].

---

(١٦٣) أخرجه مسلم (الصحيح – كتاب الجهاد والسير ٤٤٨/٣، حديث رقم ١٤٦).

(١٦٤) فتح الباري ٢٨١/٧.

(١٦٥) سيرة ابن هشام ٦٠٩/٢.

(١٦٦) الطبقات الكبرى ٦/٢.

(١٦٧) جوامع السيرة ص١٥.

(١٦٨) مقال: هذا إسلامنا، جريدة الشعب المصرية في ١٩٩٩/١٠/١٢م، نقلاً عن: الأخلاق السياسية للدولة الإسلامية ص٥٦٣.

ثانياً: إن المغازي التي شنها رسول الله ﷺ لم تكن لطلب الزعامة والتسلط، أو تحقيق بعض المصالح الشخصية من شهوات الدنيا ومتاعها، وعند استقراء تلك المغازي نجد لكل غزوة سبباً أو أكثر، وهذا جدول يبين جميع المغازي والسرايا وأسبابها :

الغزوة أو السرية	السبب
غزوة بني سليم بالكدر، غزوة الأبواء، غزوة بدر، غزوة بواط، غزوة العشيرة، سرية عبد الله بن جحش إلى نخلة	الرد على اعتداءات قريش بأخذ العير، وحصارهم اقتصادياً.
غزوة بني قينقاع	نقض العهد.
غزوة أحد	صد العدو.
غزوة الرجيع	اعتداء وغدر بني حيان حيث قتلوا وفد الرسول عاصم بن ثابت رضي الله عنه وأسروا اثنين.
سرية بئر معونة	تعرض وفد النبي ﷺ والغدر بهم وقتلهم.
غزوة بني محارب وبني ثعلبة من غطفان	لتأديبهم على تحالفهم مع اليهود ضد المسلمين.
غزوة دومة الجندل	اعتداؤهم على من مر بهم من الصحابة.
غزوة الخندق	صد العدوان لمؤامرة كفار قريش مع بعض الأعراب واليهود.
غزوة بني قريظة	صد العدوان لتآمرهم مع قريش على

	قتال المؤمنين.
غزوة ذي قرد	رد الاعتداء واسترداد عير رسول الله ﷺ بمنطقة الغابة في المدينة.
غزوة خيبر	مؤامرة وصد عدوان دسائس يهود خيبر في تحزيب الأحزاب ضد المؤمنين.
غزوة بني النضير	غدرهم بالنبي ﷺ.
غزوة مؤتة	قتل رسولُ رسولِ الله ﷺ؛ حيث بعث الرسول ﷺ الحارث بن عمير الأزدي بكتابه إلى عظيم بصرى، فعرض له شرحبيل بن عمرو الغساني، وكان عاملاً على البلقاء من أرض الشام من قبل قيصر الروم، فأوثقه وقتله.
غزوة بني السلاسل	لتأديب قبيلة قضاعة التي اشتركت لدعم الروم.
غزوة تبوك	صد اعتداء بسبب إعداد الروم لحرب المسلمين.
غزوة هوازن يوم حنين، غزوة الطائف	صد العدوان لتلاحمهم مع كفار قريش.
مسجد الضرار	تجسس وكيد المنافقين في مسجد الضرار.

وهذه الأسباب قد أجملها اللواء ركن محمود شيت خطاب في سببين:

أحدهما: حماية حرية نشر الدعوة.

والثاني: توطيد أركان السلام[١٦٩].

وأما مؤرخ السيرة أ.د.أكرم بن ضياء العُمري فقد أجمل هذه الأسباب في ثلاثة:

١- تهديد طريق تجارة قريش إلى الشام.

٢- إبراز قوة المسلمين في المدينة أمام اليهود وبقايا المشركين.

٣- عقد المحالفات والموادعات مع القبائل لضمان تعاونها أو حيادها في الصراع بين المسلمين وقريش[١٧٠].

ثالثاً: إن بعض الغزوات كانت بأمر صريح من عند الله تعالى بواسطة جبريل عليه السلام، فقد صحَّ عن عائشة رضي الله عنها قالت: أُصيب سعد يوم الخندق، رماه رجل من قريش - يقال له: ابن العرقة - رماه في الأكحل، فضرب عليه رسول الله ﷺ خيمة في المسجد يعوده من قريب، فلما رجع رسول الله ﷺ من الخندق وضع السلاح فاغتسل، فأتاه جبريل وهو ينفُض رأسه من الغبار، فقال: وضعتَ السلاح؟ والله! ما وضعناه اخرُج إليهم، فقال رسول الله ﷺ: "فأين؟" فأشار إلى بني قُريظة، فقاتلهم رسول الله ﷺ، فنزلوا على حكم رسول الله ﷺ، فردّ رسول الله ﷺ الحكم فيهم إلى سعد، قال: فإني أحكم فيهم أن تُقتل المقاتلة، وأن تُسبى الذرية والنساء، وتُقسم أموالهم[١٧١].

---

(١٦٩) الرسول القائد، ص(٤٠-٤١).

(١٧٠) المجتمع المدني، ص(٢٧).

(١٧١) صحيح مسلم (١٣٨٩/٣) كتاب الجهاد والسير، باب جواز قتال من نقض العهد، ح(١٧٦٩).

قال العيني: قوله: "أن تقتل المقاتلة" أي الطائفة المقاتلة منـــهم، أي: البالغون والذرية النساء والصبيان... وفيه أن للإمام إذا ظهر من قوم من أهل الحرب الذي بينه وبينهم هدنة على خيانة وغدر أن ينبذ إليهم على سواء وأن يحاربهم، وذلك أن بني قريظة كانوا أهل موادعة من رسول الله ﷺ قبل الخندق، فلما كان يوم الأحزاب ظاهروا قريشاً وأبا سفيان على رسول الله ﷺ، وراسلوهم إنا معكم فاثبتوا مكانكم، فأحل الله بذلك من فعلـــهم قتـــالهم ومنابـــذتهم علـــى ســـواء وفـــيهم أنزلـــت: ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ﴾ [الأنفـــال/٥٨]، فحاصـــرهم والمسلمون معه حتى نزلوا على حكم سعد رضي الله عنه[172].

رابعاً: تحريم الإكراه في دخول الإسلام: وكون القتال وســيلة مـــن وسائل الوصول إلى السلم لا يعني فرض التعاليم على الأُمم المهزومـــة، فهذا أمر مرفوض كلياً، ويتنافى مع منهج الرحمة، وقد أكد القرآن المكي والمدني على رفض هذا المبدأ، يقول الله سبحانه وتعـــالى: ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾﴾ [يونس: ٩٩] ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، وإنما يقصد بكونه وسيلة من وسائل الدعوة من ناحية تأمينيه لانتشار الرسالة بالطرق السليمة والدعوية، بحيث يواجـــه أئمـــة الكفر الذين يصدون الناس عن الإيمان بالرسالة، أو يمنعون وصولها إليهم، وفي أي مرحلة يمكن من خلالها تبليغ الرسالة دون صد ففي هذه الحالـــة لا يجوز استخدام القتال بأي حال من الأحوال، ومن تتبع غزوات الـــنبي ﷺ وجهاد الخلفاء بعده يجد هذا المبدأ بقيوده واضحاً، والمعلوم أن قتـــال

---

(١٧٢) عمدة القاري (١٤/٢٨٨-٢٨٩).

المسلمين للفرس والروم وغيرهم من الأُمم كان باعثه هو تأمين نشر دعوة تحاول هذه الأُمم وأدها والكيد لها، وبالمقابل نجد الصحابة وصـــلوا في قتالهم إلى خراسان وإلى أرمينية، و لم يفكروا قط بغزو الحبشة التي كانت قريبة جداً منهم، والسبب في ذلك أن الأُمم الأخرى فرضت القتال على المسلمين بينما الحبشة لم يكن منها صد وكيد للدعوة الإسلامية؛ لـــذا تركت وشأنها(١٧٣).

وأختم هذا الموضوع بقول المستشرق الأمريكي واشنجتون إيـــرفنج: برغم انتصارات الرسول [ﷺ] العسكرية لم تثر هذه الانتصارات كبرياءه أو غروره، فقد كان يحارب من أجل الإسلام لا مـــن أجـــل مصـــلحة شخصية، وحتى في أوج مجده حافظ الرسول ﷺ على بساطته وتواضعه، فكان يكره إذا دخل حجرة على جماعة أن يقومـــوا لـــه أو يبـــالغوا في الترحيب به، وإن كان قد هدف إلى تكوين دولة عظيمة، فإنها كانـــت دولة الإسلام، وقد حكم فيها بالعدل(١٧٤).

خامساً: المحافظة على كرامة غير المسلمين في الحرب: إذا كان الـــنبي ﷺ قد حافظ على كرامة غير المسلمين في السلم فإنه قد حافظ أيضاً على كرامتهم في الحرب مهما حمي الوطيس.

وقد رسم لذلك تعاليم سامية بأقواله وأفعاله كما يلي:

---

(١٧٣) نبي الرحمة ﷺ ص١٢٩.

(١٧٤) أوروبا والإسلام ص(٣٠٣).

١- رفقه ﷺ في عدم الاعتداء

لقد نهى الله تعالى عن الاعتداء في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ١٩٠﴾ [البقرة/١٩٠]، من أجل ذلك كان النبي ﷺ يطبق ذلك قولاً وعملاً، لذا كان خلقه ﷺ في الحرب منضبطاً بالتعاليم الإلهية، وبالرعاية الإنسانية، محذراً من شتى أنواع الاعتداء.

٢- النهي عن قتل النساء والصبيان في الغزو

لقد حرم الله تعالى الاعتداء حتى في الحرب فقال تعالى: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْۚ﴾ [البقرة/١٩٠]، واستجاب النبي ﷺ لهذا الأمر، وبين تحريم قتل النساء والصبيان، حيث ثبت عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: "وجدت امرأة مقتولة في بعض مغازي رسول الله ﷺ، فنهى رسول الله ﷺ عن قتل النساء والصبيان"[١٧٥].

قال النووي: أجمع العلماء على العمل بهذا الحديث وتحريم قتل النساء والصبيان إذا لم يقاتلوا، فإن قاتلوا قال جماهير العلماء يقتلون[١٧٦].

لقد استجاب الصحابة رضي الله عنهم لهذا النبي ﷺ: "لا تقتلوا وليداً"[١٧٧] حتى في أحرج الظروف، فهذا خبيب بن عدي كان أسيراً عند بني الحارث بن عامر بن نوفل وأرادوا قتله، فاستعار موسىً من أحد بنات الحارث

---

(١٧٥) الصحيح (١٤٨/٦ ح٣٠١٥) كتاب الجهاد، باب قتل النساء في الحرب. وأخرجه مسلم (الصحيح ١٣٦٤/٣ ح١٧٤٤ - كتاب الجهاد، باب تحريم قتل النساء والصبيان).

(١٧٦) شرح النووي على صحيح مسلم (٤٨/١٢).

(١٧٧) سنن البيهقي الكبرى (٧٧/٩، ح١٧٨٦٧)، وهو حديث صحيح.

ليستحد به فأعارته، فغفلت عن صبي لها فدرج إليه حتى أتـــاه، فأخـــذه فوضعه على فخذه فلما رأته فزعت فزعاً عرفه، والموسى في يده فقـــال: أتخشين أن أقتله؟ ما كنت لأفعل إن شاء الله[178].

فلم يجعله رهينة أو ترساً يهدد به الذين ينشدون قتله رضي الله عنه.

يقول الأستاذ الهندي بيجي رودريك: قوانين الحرب في الإسلام تعتبر أكثر القوانين إنسانية ورأفة، فهي تضمن السلامة التامة للنساء والولدان والشيوخ وجميع غير المحاربين فليس هناك في نظر الإسلام أبشع من جريمة قصف المستشفيات والمدارس وأماكن العبادة ومساكن المدنيين في المنطقة المعادية، وإنما يجعل الإسلام لهذه المرافق الإنسانية قدسيتها ويحـــذر مـــن المساس بها[179].

٣- تحريم التمثيل بالمقتولين المحاربين

ومن آداب نبي الإسلام ﷺ في الحرب تحريم التمثيل بمن سقط قتيلاً أو جريحاً على يد المسلمين، حيث نهى النبي ﷺ عن ذلك كما صـــحَّ عـــن بريدة مرفوعاً: "اغزوا باسم الله في سبيل الله قاتلوا من كفر بالله، اغـــزوا ولا تغلّوا ولا تغدروا ولا تمثّلوا ولا تقتلوا وليداً[180].

(١٧٨) صحيح البخاري (٤/١٤٩٩)، كتاب المغازي، باب غزوة الرجيع، ح(٣٨٥٨).

(١٧٩) انظر: قالوا عن الإسلام ص٢٨٨.

(١٨٠) صحيح مسلم- كتاب الجهاد والسير- باب تأمين الإمـــام الأمـــراء حـــديث رقم١٧٣١.

٤- الترهيب من التعذيب

ثبت عن هشام بن حكيم بن حزام قال: مرَّ بالشام على أناس وقد أقيموا في الشمس وصبَّ على رؤوسهم الزيت، فقال: ما هذا؟ قيل: يعذبون في الخراج. فقال: أما إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: "إن الله يعذب الذين يعذبون في الدنيا"(١٨١).

والخراج: قال الأزهري: الخراج اسم لما يخرج من الفرائض في الأموال... ويقع على الفيء ويقع على الجزية(١٨٢).

٥- أمان الأسير إذا أسلم

إذا أسلم الأسير فإنه يحرم قتله، فقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: "أمرتُ أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله ويؤمنوا بي وبما جئت به، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله"(١٨٣).

وكذلك في حال عقد الأمان للأسير فإنه لا خلاف بين المسلمين أن الأمان للأسير يعصم دمه(١٨٤).

---

(١٨١) صحيح مسلم (٢٠١٧/٤) كتاب البر، باب الوعيد الشديد لمن عذب الناس بغير حق ح٢٦١٣.

(١٨٢) تهذيب اللغة (٤٧/٧).

(١٨٣) رواه الشيخان، صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ (١٧/١ح٢٥)، وصحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب الأمر بالإيمان بالله تعالى ورسوله ﷺ (٥٢/١ ح٢١).

(١٨٤) انظر اختلاف الفقهاء ص(٤٢-٤٣)، وبداية المجتهد (٣٨٢/١).

وقد جاءت السنة النبوية في تطبيق الأمان للأسرى، ومنها كما حصل في غزوة بدر فقد كان الأمان، وقبول الفداء للعباس وأبي العاص زوج زينب رضي الله عنها بنت رسول الله ﷺ، وكذلك كان الأمان لنوفل بن الحارث بن عبد المطلب وعقيل بن أبي طالب وعُتبة بن عمرو بن جحدم.

وثبت عن عائشة قالت: لما جاءت أهل مكة في فداء أساراهم، بعثت زينب بنت رسول الله ﷺ في فداء أبي العاص، وبعثت فيه بقلادة كانت خديجة أدخلتها بها على أبي العاص حين بنى عليها، فلما رآها رسول الله ﷺ رَقَّ لها رقة شديدة وقال: "إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها وتردُّوا عليها الذي لها فافعلوا". قالوا: نعم يا رسول الله، وردُّوا عليه الذي لها[١٨٥].

وفي هذا الحديث الكريم التطبيق العملي لحق فداء الأسير والتلطف مع الأسرى الذي يبين حكماً شرعياً في جواز أخذ الفداء لإطلاق سراح الأسرى، وفيه أيضاً أنه لا محسوبية ولا منسوبية في السياسة النبوية مع المحاربين حتى لو كانوا من الأقربين، كما رأينا في فداء زوج ابنة رسول الله ﷺ زينب رضي الله عنها، وذلك بعد ما دفعت الحق المطلوب منها،

(١٨٥) أخرجه الحاكم (المستدرك ٣/٣٢٤ - كتاب معرفة الصحابة) وقال: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي. وله شاهد مختصر بنحوه، وأخرجه الطبراني (المعجم الكبير ١١/١٧١ ح١١٣٩٨). وعزاه الهيثمي للطبراني في الأوسط والكبير وقال: رجال الأوسط رجال الصحيح غير ابن إسحاق وقد صرح بالسماع (مجمع الزوائد ٧/٢٨)، وأخرجه الطبري بسنده الحسن من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس. وأصل الحديث في (سنن أبي داود ح٢٦٩٢- كتاب الجهاد، باب فداء الأسير بالمال، وحسنه الألباني (صحيح أبي داود ح٢٣٤١).

وكذلك الحال للأسرى من أبناء عمِّ النبي ﷺ، فكـــان التعامـــل يـــتم بالسواسية.

٦- أمان غير المسلم إذا كان رسولاً

سنّ النبي ﷺ هذا الحق ومضت هذه السنة إلى يومنا هذا، كما هـــو معروف في العلاقات الدولية، وهذا القرار الحكيم هو تمهيد إلى الصـــلح والمفاوضات، وصحَّ عن نُعيم بن مسعود الأشجعي قال: جاء ابن النواحة وابن أثال رسولا مسيلمة إلى النبي ﷺ فقال لهما: أتشهدان أني رســـول الله؟ قالا: نشهد أن مسيلمة رسول الله، فقال رسول الله ﷺ: آمنت بالله ورسوله لو كنت قاتلاً رسولاً لقتلتكما.

رواه الإمام أحمد وقال ابنه عبد الله: فمضت السُـــنَّة أن الرســـل لا تقتل[١٨٦].

وهذا الحديث صريح في تحريم قتل الرسل حتى لو أعلنوا الكفر جهاراً نهاراً، وفي ذلك قمة السماحة والمرونة السياسية في الإسلام؛ لأن هـــذا الرسول الذي أعلن كفره هو وسيط لإبرام معاهدات وعقد صلح وغير ذلك، وهذه السنة النبوية الفعلية للعلاقات الدولية جاءت لتطبيق هـــذا الحق الذي لا زال قائماً في الأعراف الدولية، إنها دراسة السياسة، هكذا كانت رحمة نبي الحكمة ﷺ.

---

(١٨٦) المسند (٣٩٦/١) وأخرجه أبو داود في سننه، كتاب الجهاد، باب في الرسل ح (٢٣٩٩)، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود ح (٢٧٦١).

٧- التشديد على من قتل محارباً أعلن الإسلام وألقى السلام

إن المحارب للمسلمين مهما قتل ومهما فتك إذا قال: لا إلـه إلا الله، فإنه يُضمن له الأمن، ويكون حاله كحال أي مسلم، سبحان الله! إنها كلمة ينطق بها لسانه، يحمي نفسه من القتل والجراح، بل يكـون آمناً وأخاً مسلماً، إن هذه الكلمة تزيل تلك العداوة، وتطفي نيران السلاح، من أجل ذلك كان النبي ﷺ شديداً على من خالف هذا الحكم أو أخطأ فيه، ويغضب غضباً شديداً حتى ولو كان من المقربين والمحبين، فقد صحَّ عن أُسامة بن زيد رضي الله عنهما أنه قال: بعثنا رسـول الله ﷺ إلى الحرقة فصبحنا القوم فهزمناهم، ولحقت أنا ورجل من الأنصار رجلاً منهم، فلما غشيناه قال: لا إله إلا الله، فكف الأنصاري عنه، فطعنته برمحي حتى قتلته، فلما قدمنا بلغ النبي ﷺ فقال: "يا أُسامة أقتلته بعد ما قال: لا إله إلا الله"؟ قلت: كان متعوذاً، فما زال يكررها حتى تمنيت أني لم أكن أسلمت قبل ذلك اليوم[١٨٧].

٨- عفوه ﷺ عن المنافقين

لقد كانت تحركات المنافقين تحفها الريبة والخيانة، وعلـى رأسـهم زعيمهم عبد الله بن أُبي بن سلول، الذي انخذل بثلاثمائة من أصحابه يوم أُحد، وهو الذي قال في غزوة المُريسيع (بني المصطلق): ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾﴾ [المنافقون/٨]، ومع هذا كله فقد عفا عنهم نـبي

---

(١٨٧) صحيح البخاري (٤/١٥٥٥)، كتاب الجهاد، باب بعث النبي ﷺ أسامة بن زيد إلى الحرقات، ح(٤٠٢١).

الرحمة ﷺ، فقد صحَّ عن زيد بن أرقم قال: كنت في غزاة فسمعت عبد الله بن أُبي يقول: لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا من حوله، ولئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل، فذكرت ذلك لعمي -أو لعمر- فذكره للنبي ﷺ فدعاني، فحدثته، فأرسل رسول الله ﷺ إلى عبد الله ابن أُبي وأصحابه فحلفوا ما قالوا، فكذبني رسول الله ﷺ وصدقه، فأصابني همٌّ لم يصبني مثله قط، فجلست في البيت، فقال لي عمي: ما أردت إلى أن كذبك رسول الله ﷺ ومقتك، فأنزل الله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ۝١﴾ [المنافقون/١]، فبعث إليَّ النبي ﷺ فقرأ، فقال: "إن الله قد صدقك يا زيد"(١٨٨).

وأما في غزوة أحد فقد انخذلوا، واختلف الصحابة في أمرهم، كما صحَّ عن زيد بن ثابت رضي الله عنه يقول: لما خرج النبي ﷺ إلى أحد، رجع ناس من أصحابه، فقالت فرقة: نقتلهم، وقالت فرقة: لا نقتلهم، فنزلت: ﴿فَمَا لَكُمْ فِى ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ [النساء/٨٨](١٨٩). ومع هذا فقد عفا عنهم النبي ﷺ.

وصحَّ عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أنه قال: كنا في غزاة، فكسع رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار، فقال الأنصاري: يا للأنصار! وقال المهاجري: يا للمهاجرين! فسمعها رسول الله ﷺ قال:

---

(١٨٨) صحيح البخاري (١٨٥٩/٤)، كتاب التفسير، سورة المنافقون، باب قوله: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِۗ﴾ ح(٤٦١٧).

(١٨٩) صحيح البخاري (٦٦٦/٢) كتاب الفضائل، باب المدينة تنفي الخبث، ح(١٧٨٥).

"ما هذا؟" فقالوا: كسع رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار، فقال الأنصاري: يا للأنصار، وقال المهاجري: يا للمهاجرين، فقال النبي ﷺ: "دعوها فإنها منتنة". قال جابر: وكانت الأنصار حين قدم النبي ﷺ أكثر، ثم كثر المهاجرون بعد، فقال عبد الله بن أُبي: أو قد فعلوا والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل، فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: دعني يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق؟ قال النبي ﷺ: "دعه، لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه"(١٩٠).

٩- عفوه ﷺ عن المشركين

إن اهتمام النبي ﷺ بإفشاء الأمن والسلام جعله يعفو ويتسامح مع الذين يحاربونه من المشركين، فكم عانى النبي ﷺ من أذى المشركين في مكة المكرمة والطائف! ومع هذا فقد عفا عن الطلقاء في مكة، وعفا عن العتقاء في الطائف، فقد صحَّ عنه أنه قال لكفار مكة: "اذهبوا فأنتم الطلقاء"(١٩١). وكذلك قال: "من دخل دار أبي سفيان فهو آمن"(١٩٢).

---

(١٩٠) صحيح البخاري (١٨٦٣/٤) كتاب التفسير، سورة المنافقون، باب قوله: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾ ح(٤٦٢٤).

(١٩١) سنن البيهقي الكبرى (١١٨/٩)، باب فتح مكة حرسها الله، ح (١٨٠٥٣).

(١٩٢) صحيح مسلم (١٤٠٥/٣)، كتاب الجهاد والسير، باب فتح مكة، ح(١٧٨٠).

وعندما رجع من غزوة حنين دعا لهم بقوله: "اللهم اهدهم واكفنا مؤنتهم"[193]، فهو يطلب لهم من الله تعالى الهداية في السلم والحرب، وفي الوقت نفسه يحاول تجنب الحرب معهم.

وحينما حاصر الطائف أمر رسول الله ﷺ منادياً ينادي: أيما عبد نزل من الحصن وخرج إلينا فهو حر، فخرج جماعة فأعتقهم رسول الله ﷺ، ودفع كل واحد منهم رجل من المسلمين يمونه، فشق ذلك على أهل الطائف مشقة شديدة وزاد من ألمهم[194].

وعدد هؤلاء العتقاء (٢٣) رجلاً[195].

ولما اشتد البلاء من قريش على رسول الله ﷺ بعد موت عمه خرج إلى الطائف، رجاء أن يؤوه وينصروه على قومه، ويمنعوهم منه، حتى يبلّغ رسالة ربه، ودعاهم إلى الله ﷻ، فلم ير من يؤوي ولم ير ناصراً، وآذوه أشد الأذى، ونالوا منه ما لم ينل منه قومه، وكان معه زيد بن حارثة مولاه.

فأقام بينهم عشرة أيام لا يدع أحداً من أشرافهم إلا كلمه، فقالوا: أخرج من بلدنا، وأغروا به سفهاءهم، فوقفوا له سِماطين، وجعلوا يرمونه بالحجارة وبكلمات من السفه هي أشد وقعاً من الحجارة، حتى

---

(١٩٣) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة (٤٩/٣) وذكره السيوطي في الخصائص الكبرى (٩٧/٢).

(١٩٤) الطبقات الكبرى لابن سعد (١٥٨/٢-١٥٩).

(١٩٥) ينظر: صحيح البخاري (١٥٧٣/٤) كتاب المغازي، باب غزوة الطائف، ح(٤٠٧٢).

دُميت قدماه، وزيد بن حارثة يقيه بنفسه حتى أصابه شجاج في رأسه، فانصرف إلى مكة محزوناً.

فأرسل ربه تبارك وتعالى إليه ملك الجبال يستأمره أن يطبق الأخشبين على أهل مكة – وهما جبلاها اللذان هي بينهما – فقال ﷺ: "بل استأني بهم، لعلَّ الله أن يخرج من أصلابهم من يعبده، لا يشرك به شيئاً"(١٩٦).

إنه الصبر والعفو عمن ظلمه ورغبته الشديدة في هدايتهم إلى الحق وحبه للسلام جعله يجيب تلك الإجابة الحكيمة.

وعندما علمت قريش بهجرة النبي ﷺ ومعه أبو بكر رضي الله عنه جعلت قريش لمن جاء بواحد من محمد ﷺ وأبي بكر رضي الله عنه مائة من الإبل، فلما مرُّوا بحي مدلج، بَصُر بهم سراقة بن مالك بن جعشم سيد مدلج، فركب جواده وسار في طلبهم، فلما قرب منهم سمع قراءة النبي ﷺ، وأبو بكر رضي الله عنه يكثر الالتفات حذراً على رسول الله ﷺ، وهو ﷺ لا يلتفت، فقال أبو بكر: يا رسول الله هذا سراقة بن مالك قد رهقنا، فدعا عليه رسول الله ﷺ فساخت يدا فرسه في الأرض فقال: رميت، إن الذي أصابني بدعائكما، فادعوا الله لي، ولكما عليَّ أن أردَّ الناس عنكما، فدعا له رسول الله ﷺ فأطلق، وسأل رسول الله ﷺ أن يكتب له كتاباً، فكتب له أبو بكر في أدم، ورجع يقول للناس: قد كفيتم ما ههنا، وقد جاء مسلماً عام حجة

---

(١٩٦) ينظر صحيح البخاري، كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة حديث رقم (٣٢٣١)، وصحيح مسلم، كتاب الجهاد والسير – باب ما لقي النبي ﷺ من أذى المشركين والمنافقين حديث رقم (١٧٩٤).

الوداع ودفع إلى رسول الله ﷺ الكتاب الذي كتبه له، فوفَّى له رسول الله ﷺ بما وعده وهو لذلك أهل[197].

وهذا الموقف أشد من سابقه لأن العدو الذي أراد قتل النبي ﷺ قد عرف ووقع في هذه المهلكة ومع ذلك دعا له وخلصه من موت محقق، إنه العفو عند المقدرة.

وأختم هذا الموضوع بقول المستشرق الأمريكي واشنجتون إيرفنج:

كانت تصرفات الرسول [ﷺ] في أعقاب فتح مكة تدل على أنه نبي مرسل لا على أنه قائد مظفر؛ فقد أبدى رحمة وشفقة على مواطنيه برغم أنه أصبح في مركز قوي، ولكنه توج نجاحه وانتصاره بالرحمة والعفو[198].

سادساً:رعاية الأسرى: لقد اعتنى الإسلام بالضعفاء جميعاً ومنهم الأسرى وقد حث الله تعالى على الإحسان لهم في ثنائه على المؤمنين الذين يعطون حق الأسير كما في قوله تعالى:﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾﴾[الإنسان/٨].

وقد استجابت الأُمة لهذا الأمر منذ صدر الإسلام إلى يومنا هذا كما هو معروف، ومن ضروب رعاية الأسرى ما يلي:

---

(١٩٧) الفصول ص(١٠٠-١٠٣).

(١٩٨) حياة محمد، ص(٢٣٣).

١- دفاعه عن الأسرى:

ومن شدة عناية النبي ﷺ بالأسرى فإنه يغلظ بشدة على المخطـــئ في قتلهم ويتبرأ من ذلك، فقد صحَّ عن عبد الله بن عمر رضي الله عنـــهما قال: (بعث النبي ﷺ خالد بن الوليد إلى بني جذيمة فدعاهم إلى الإسلام، فلم يحسنوا أن يقولوا: أسلمنا، فجعلوا يقولون: صَبأنا، صَبأنا. فجعـــل خالد يقتل منهم ويأسر، ودفع إلى كل رجل منا أسيره، حتى إذا كان يوم أمر خالد أن يقتل كل رجل منا أسيره، فقلت: والله لا أقتل أسيري ولا يقتل رجل من أصحابي أسيره. حتى قدمنا على النبي ﷺ فذكرناه، فرفع النبي ﷺ يديه فقال: "اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد مرتين"(١٩٩).

قال الخطابي: أنكر عليه العجلة وترك التثبيت في أمرهم قبل أن يعلـــم المراد من قولهم صبأنا(٢٠٠).

٢- المن على الأسرى

العفو عن الأسرى بدون قتل وبدون فدية عمل به النبي ﷺ مع كـــثير من غير المسلمين فقد منّ على كثير من الأسرى وخصوصاً من الذين لا مال لهم جملة وفرادى منهم: ستة آلاف من سبي هوازن(٢٠١)، كما أمر النبي ﷺ زيد بن حارثة أن يطلق سراح كل من أسره من بني جذام فمنّ

---

(١٩٩) صحيح البخاري – كتاب المغازي – باب السرية التي قبل نجد (٤٣٣٨).

(٢٠٠) فتح الباري (٥٧/٨).

(٢٠١) ينظر: زاد المعاد (١٨٨/٢).

عليهم كلهم[٢٠٢]، وكذلك منّ ﷺ على الأسرى والسبايا من بني المصطلق، وقد كان عددهم أكثر من سبعمائة[٢٠٣].

كما منّ على ثمانين أسيراً في صلح الحديبية[٢٠٤].

ومن الذين منّ عليهم فرادى: حنطب بن الحرث، وصيفي بن أبي رفاعة، وأبي عزة عمرو بن عبد الله الجمحي، وأبي العاص بن الربيع، والسائب بن عبيد، وعبيد بن عمرو بن علقمة، وعمرو بن أبن سفيان، وعمير بن وهب بن عمير بن وهب بن خلف[٢٠٥]، وكل هؤلاء لم يأخذ منهم شيئاً.

كما منّ أيضاً على بعض يهود بني قريظة كالزبير بن باطا القرظي، وعطية القرظي، ورفاعة بن سمؤال القرظي، وعمرو بن سعد أو سعدي[٢٠٦].

كما منّ على ثمامة بن أثال من بني حنيفة[٢٠٧].

---

(٢٠٢) ينظر الطبقات الكبرى (٢/٨٨)، والسيرة النبوية لابن هشام (٤/٢٨٥).

(٢٠٣) صحيح البخاري (٣/١٢٢)، وعون المعبود (١٠/٤٤٤).

(٢٠٤) صحيح مسلم (٣/١٤٤٢).

(٢٠٥) ينظر السيرة النبوية لابن هشام (٢/٣٠٤-٣٠٩) ونصب الراية (٣/٤٠٥-٤٠٦).

(٢٠٦) ينظر السيرة النبوية لابن هشام ٣/٢٦١- ٢٦٤ والأموال لأبي عبيد ص ١١١-١١٢.

(٢٠٧) صحيح البخاري ٣/١٣٨٦.

٣- إطعام الأسير

وقد حدث أن وقع ثمامة بن أثال أسيراً في أيدي المسلمين فجاؤوا به إلى النبي فقال:"أحسنوا أساره"، وقال:"اجمعوا ما عندكم من طعام فابعثوا به إليه"[٢٠٨].

يقول أبو عزيز بن عمير وكان من أسرى بدر:"كنت في رهط من الأنصار حين أقبلوا بي من بدر، فكانوا إذا قدموا غذاءهم وعشاءهم خصوني بالخبز وأكلوا التمر، ولوصية رسول الله إياهم بنا، ما تقع في يد رجل منهم كسرة خبز إلا نفحني بها فأستحي فأردها على أحدهم فيردها على ما يمسها"[٢٠٩].

٤- إجارة الثقة للمحاربين

وقد أجمع العلماء على جواز إجارة المرأة والأمان على أحد من الأعداء المحاربين[٢١٠]، واستدلوا بما رواه البخاري بسنده عن أُم هانيء بنت أبي طالب قالت: ذهبت إلى رسول الله ﷺ عام الفتح فوجدته يغتسل وفاطمة ابنته تستره، فسلمت عليه، فقال: "من هذه؟" فقلت: أنا أُم هانيء بنت أبي طالب، فقال: "مرحبا بأُم هانيء"، فلما فرغ من غسله قام فصلى ثماني ركعات ملتحفاً في ثوب واحد، فقلت: يا رسول الله زعم ابن أُمي علي أنه قاتل رجلاً قد أجرته فلان بن هبيرة، فقال رسول

---

(٢٠٨) صحيح مسلم (١٧٦٤).

(٢٠٩) انظر: المعجم الكبير للطبراني (٢٤٨/١٦).

(٢١٠) انظر: الإجماع لابن المنذر، ص٦١.

الله ﷺ: "قد أجرنا من أجرت يا أُم هانيء". قالت أم هانيء: وذلك ضحى[211].

قال العيني: وفيه من الفقه جواز أمان المرأة، وأن من أمنته حرم قتله، وقد أجارت زينب بنت رسول الله ﷺ أبا العاص ابن الربيع[212].

إن هذا الجواز للأمان لهو إقرار صريح لهذا الحق السياسي عند فتوح البلدان، واستقامة النسوان، وهو من خلق سيد ولد عدنان، الذي سعى لإكرام الإنسان.

ويستنبط من هذا الحديث جواز إجارة الرجال الثقات.

سابعاً: مشروعية الحصانة الدبلوماسية مهما بلغ اشتعال الحرب بين المسلمين وغيرهم، فإن الرسل لهم خصائصهم بضمان أنفسهم وعدم التعرض لهم بأي أذى، وقد حصلت كثير من الوقائع ومنها ما يلي:

١- ما رواه الإمام أحمد عن نعيم بن مسعود قال:"سمعت رسول الله ﷺ حين قرأ كتاب مسيلمة الكذاب قال للرسولين: فما تقولان أنتما؟ قالا: نقول كما قال، فقال رسول الله ﷺ: "لولا أن الرسل لا تُقتل لضربت أعناقكما"[213].

---

(٢١١) صحيح البخاري أبواب الجزية والمعاهدة، باب أمان النساء وجوارهن ح ٣٠٠٠ (١١٥٧/٣)، وأخرجه مسلم، الصحيح، كتاب الصلاة، باب استحباب صلاة الضحى ح ٣٣٦، (٤٩٨/١).

(٢١٢) عمدة القاري (٩٣/١٥).

(٢١٣) الفتح الرباني، أحمد عبد الرحمن البنا (٦٢/١٤).

٢- روى أبو داود بسنده عن حارثة بن مضرب أنه أتى عبد الله- أي ابن مسعود- ما بيني وبين أحد من العرب حِنَةٌ[٢١٤] وإني مررت بمسجد لبني حنيفة فإذا هم يؤمنون بمسيلمة، فأرسل إليهم عبد الله، فجيء بهم فاستتابهم غير ابن النواحة، قال له: سمعت رسول الله ﷺ يقول: لولا أنك رسول الله لضربت عنقك، فأنت اليوم لست برسول، فأمر قرظة بن كعب، فضرب عنقه في السوق، ثم قال: من أراد أن ينظر إلى ابن النواحة قتيلاً في السوق"[٢١٥].

٣- روى الإمام أحمد بسنده عن أبي رافع عن أبيه عن جده أبي رافع قال: "بعثتني قريش إلى النبي ﷺ، فلما رأيت النبي ﷺ وقع في قلبي الإسلام، فقلت: يا رسول الله، لا أرجع إليهم، قال: إني لا أخيس العهد ولا أحبس البرد، ارجع إليهم فإن كان في قلبك الذي فيه الآن فارجع"[٢١٦].

قال الشوكاني بعد أن ذكر الحديثين -الأول والثاني-: (الحديثان يدلان على تحريم قتل الرسل الواصلين من الكفار وإن تكلموا بكلمة الكفر في حضرة الإمام أو سائر المسلمين، والحديث الثالث: فيه دليل على أنه يجب الوفاء بالعهد للكفار كما يجب للمسلمين؛ لأن الرسالة تقتضي جواباً يصل على يد الرسول فكان ذلك بمنزلة عقد العهد)[٢١٧].

---

(٢١٤) حنة : بكسر الحاء المهملة وفتح النون المخففة أي عداوة وحقد.

(٢١٥) عون المعبود شرح سنن ابن داود (٤٤٣/٧).

(٢١٥) مسند الإمام أحمد، (٨/٦) وانظر عون المعبود (٤٣٧/٧).

(٢١٦) نيل الأوطار، للشوكاني (١٨٢/٨).

وقال ابن مسعود: (جرت سنّة ألا يقتل الرسول)[218].

وقال يوسف عن الرجل يمر بمواقع المسلمين وهو سفير: (فإن قال أنا رسول الملك، بعثني إلى ملك العرب، وهذا كتابه معي، وما معـــي مـــن الدواب والمتاع والرقيق فهدية إليه، فإنه يصدق ويقبل قوله، إذا كان أمراً معروفاً، فإن مثل ما معه لا يكون إلا على ما ذكر من قوله، إنما هـــذه هدية من الملك إلى ملك العرب، لا سبيل عليه، ولا يعرض له ولا لما معه من المتاع والسلاح والرقيق والمال)[219].

وقال الإمام محمد بن الحسن الشيباني: (ولو أن رسول ملـــك أهـــل الحرب جاء إلى عسكر المسلمين، فهو آمن حتى يبلغ رسالته)[220].

وقال أيضا: (إن السفير لا يمكن أن يعمل من دون احترام وضـــمان وحصانة له؛ لأن عمله لا يمكـــن أن ينجـــزه مـــن دون مثـــل هـــذه الحصانة)[221].

وقد أجمع فقهاء الإسلام على أن الرسل لا يقتلون[222].

ثامناً: تطبيقات التعامل النبوي مع غير المسلمين بعد العهد النبوي.

إن عناية السنة النبوية بالإنسان عامة وبغير المسلمين خاصة رســـخت في نفوس المسلمين؛ إذ أدركت الأمة عظمة ذلك التعامل الذي انبـــهرت

---

(٢١٧) الفتح الرباني، أحمد عبد الرحمن البنا (٦٢/١٤).

(٢١٨) الخراج، لأبي يوسف ص(٣٦٥).

(٢١٩) شرح السير الكبير، للشيباني (٢٥١/٢).

(٢٢٠) شرح السير الكبير للشيباني (١٦٦/١).

(١٢١) انظر: نهاية المحتاج، للرملي (٦١/٨)، والمهذب الشيرازي (٢٣٤/٢).

به حضارات العالم لما فيه من الكمال والجمال، وإعطاء كل ذي حـــق حقه تلك المعالم العظيمة التي نشرت الوئام بين البشرية بمختلف حضاراتها وأديانها وثقافاتها؛ لذا نجد الوثائق السياسية والوقائع التاريخيـــة حفلـــت بكثير من التطبيقات العملية من التعامل النبوي مع غير المسلمين في شتى العصور من عهد الخلفاء الراشدين ثم العهد الأموي فالعباسي فالعثمـــاني إلى عصرنا الحاضر، وكتب التاريخ تنطق بذلك.

القسم الثالث: أقوال العلماء والحكّام والشعوب

إن هذه الروايات الصحيحة ذات المعاني الفصيحة من عقيـــدة هـــذه الأمة ومن ثوابتها التي تعتز بها فهي تأبى التنقص في نبيها وحبيبها ﷺ.

وحيث إن إثارة تلك الشبهة التي صدرت عن أولئك المـــذكورين في عرض الشبهة أدت إلى انطباع سلبي تجاه النبي محمد ﷺ فقد تجرأ البعض بعمل بعض الرسوم الكاريكاتيرية التي سخرت من النبي ﷺ ونسبت إليه صور العنف والتفجير، وذلك في بعض الصحف الدانماركية مما أدى إلى غضب عام في العالم، فتواترت الردود في أنحاء العالم على تلك الرســـوم على جميع المستويات الحكومية والمؤسسات العلمية والشعبية كما يلي في الدول الآتية:

المملكة العربية السعودية: ندد مجلس الوزراء ومجلس الشورى والمفتي العام للمملكة العربية السعودية ورئيس هيئة كبار العلماء وإدارة البحوث العلمية والإفتاء عبد العزيز بن عبد الله بن محمد آل الشيخ استنكر البهتان العظيم بحكمة، ودعا المسؤولين في حكومة الـــدانمارك بـــأن تحاســـب

الصحيفة التي نشرت هذه الرسوم، وتلزمها بالاعتـــذار عـــن جريمتـــها النكراء، وتوقع الجزاء الرادع على من شارك في إثارة هذا الموضوع[٢٢٣].

الإمارات العربية المتحدة: وزير العدل محمد الظاهري يطلق تســمية "ثقافة الإرهاب" على نشر الصحيفة للصور.

البحرين: طالب برلمان البحرين باعتذار رسمي من ملكــة الــدانمارك مارغريت الثانية[٢٢٤].

ليبيا: أغلقت سفارتها في الدانمارك، كما أشعلت النار في كل مصالح الدانمارك وإيطاليا في بنغازي، وطردت ليبيا السفير الدانمركي من طرابلس مع وقوع ثورة وأعمال عنف ضد المصالح الإيطالية في ليبيا، وهـــددت ليبيا بقطع كل المصالح التجارية والنفطية بينها وبين الدانمرك.

الأردن: استدعت الأردن سفيرها في الدانمارك للتشاور.

اليمن: برلمان اليمن يشجب صحيفة يولاندس بوستن مـــع وقـــوع احتجاجات شعبية كبيرة.

إندونيسيا: صرح الرئيس سوسيلو بانبانغ يودهونو بـــأن حكومتـــه تشجب قرار الصحيفة بنشر الصور ودعى العالم الإسلامي لتقبل اعتذار الصحيفة.

---

(٢٢٣) جريدة الوطن ليوم الأربعاء الموافق ١٤٢٦/١٢/٢٥هـــ.

(٢٢٤) ينظر موقعwww.wayakonline.com ٢٠٠٨/٣/١١م ١٠:٠٥-٢٨ وياك أون لاين.

إيران: سحب محمود أحمدي نجاد سفير إيران في الدانمارك ودعا إلى إلغاء العقود التجارية بين إيران والدانمارك.

لبنان: صرح وزير الخارجية اللبناني أن حدود حرية التعبير يجب ألا تتجاوز على المعتقدات الدينية.

ماليزيا: صرح رئيس الوزراء أن نشر الصور هي محاولة متعمدة للإساءة.

باكستان: بيان من البرلمان بشجب قرار صحيفة يولاندس بوستن بنشرها للصور.

بنغلاديش: صرح وزير الخارجية مرشد خان أن برلمان بلاده تطالب الحكومة الدانمركية بتقديم اعتذار للمسلمين.

أفغانستان: أطلق حامد قرضاي تسمية "غلطة" على قرار صحيفة يولاندس بوستن بنشر الصور الكاريكاتيرية وأعرب عن أمله أن تؤدي هذه الضجة إلى مواقف " أكثر مسؤولية" من الإعلام العالمي في المستقبل.

تركيا: صرح رئيس الوزراء رجب طيب أردوغان أن الصور الكاريكاتيرية هجوم على القيم الروحية للمسلمين، ويجب أن يكون هناك حدود لحرية الصحافة، وأن المسلمين لم يتهجموا على السيد المسيح النبي عيسى ابن مريم.

سوريا: قامت سوريا بسحب سفرها من الدانمرك.

سنغافورة: صرح وزير الخارجية ووزير الدولة للشؤون الإسلامية أن الضجة أسفرت عن حاجة ملحة لاحترام العقائد الدينية والخصائص العرقية من قبل وسائل الإعلام.

فنلندا: انتقد وزير الخارجية الفنلندي الحكومة الدانمركية لعدم فعاليتها في حل الأزمة.

فرنسا: دعم وزير الخارجية الفرنسية حق حرية الصحافة بشرط أن تحترم المعتقدات الدينية.

ألمانيا: المستشارة أنجيلا ميركل صرحت أنها تتفهم الإساءة التي لحقت بمشاعر المسلمين، ولكنها شجبت ردود الفعل العنيفة.

روسيا: صرح الرئيس الروسي فلاديمير بوتين أن الحكومة الدانمركية تستعمل حجة حرية الرأي للدفاع عن الصحيفة التي أهانت المسلمين، وإن تلك الفعلة غير أخلاقية.

المملكة المتحدة: وزير الخارجية جاك سترو انتقد الصحف التي نشرت الصور، وأثنى على الصحف التي امتنعت عن نشرها، وطالب بالهدوء مع رفع حالة الطوارئ في البلاد.

الولايات المتحدة: نشرت الخارجية الأمريكية تصريحاً تنص على أن حرية رأي الصحافة يجب أن يكون موازياً مع الشعور بالمسؤولية. من جهة أخرى شجب الرئيس السابق بيل كلينتون نشر مثل هذه الرسوم وقال: إن " نشر هذه الرسوم خطأ"، وإنها"تضر بالحوار بين الثقافات".

هولندا: صرح رئيس الوزراء جان بيتر بأنه في العالم الغربي يلجأ الناس إلى المحاكم لحل النزاعات وأن لغة التهديد والوعيد والعنف لا مكان لها في المجتمع الأوروبي.

بولندا: صرح رئيس الوزراء كازيميريز مارسينكيويج أن الصور الكاريكاتيرية بنظره ليست من الضرورة أن يكون القصد من ورائها الإساءة، لكن بلاده آسفة إن كان نشر الصور في جرائد بولندية قد جرح مشاعر المسلمين(٢٢٥).

أما ردود العلماء فقد احتج العلماء في أقطار الأرض، ومنهم سماحة مفتي المملكة العربية السعودية الشيخ عبد العزيز بن عبد الله آل الشيخ، وأمين عام رابطة العالم الإسلامي معالي الأستاذ الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي، وفضيلة شيخ الأزهر سيد طنطاوي حفظهم الله، وكان احتجاجهم في غاية الحكمة والسماحة بالعبارات الهادئة الهادفة.

والحقيقة التي ينبغي أن تؤخذ بعين الاعتبار أن الأُمَّة بعوامها ومثقفيها وجميع شرائحها إذا سمعوا شيئاً يمس شخصية نبيهم ﷺ فإنهم يتأثرون ويغضبون، ويفدون أرواحهم من أجله، ولولا تهدئة العوام من قِبل العلماء والحكام لحدثت اضطرابات وعمّت الفوضى.

إن الإنكار على نبي الحكمة بأنه استخدم السيف والقوة لهو اعتراض على أمر الله تعالى، وإنكار على بقية الأنبياء الذين استخدموا تلك القوة، فقد استطاع سليمان ﷺ أن يقهر أعداءه بالقوة التي كان يتمتع بها، فقد

---

(٢٢٥) نقلاً من رسالة: نصرة الله تعالى نبيه محمد ﷺ، للدكتورة حنان بنت بنية الجهني ص٣١٧-٣٢٠.

سخر الله تعالى له أشياء كثيرة، وكذلك داود استطاع بحنكته العسكرية قتل جالوت رأس الكفر آنذاك، وبذلك انتصر طالوت والمؤمنون معـــه، وهذه الأخبار معروفة عند أهل الكتاب[٢٢٦]، وهـــي أيضـــاً وردت في القرآن الكريم، كما في قوله تعالى: ﴿ ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴾ [النمل/٣٧].

ولو تتبعنا غزوات النبي ﷺ نجد أن معظمها كان صلحاً، وما كـــان بالسيف فهو لأسباب وجيهة، فكان قتاله إما لعدوٍ يعـــد العـــدة ضـــد المسلمين، أو بسبب التحالف مع الأعداء، أو بسبب التآمر على قتل نبي الرحمة ﷺ، أو للدفاع عن دولة الإسلام، فلم يقاتل إلا المحاربين.

وأخيراً: فالتنقص من نبي الرحمة هو مناسبة سانحة للملحدين الـــذين يعادون الأنبياء، فقد استغل الملحدون في برلين هذه الإشـــاعة فـــازداد التحدي علـــى المســـلمين والمســـيحيين، وذلـــك في يـــوم الثلاثـــاء ٢٦/١١/٢٠٠٦م، فقد عقدت مؤسسة للعروض الأوبراليـــة في بـــرلين مؤتمراً صحفياً أعلنت فيه كرستين هارمز أن إلغاء عروض أوبـــرا كـــان سيتم عرضها في الشهر نفسه خشية أن يعدَّها المســـلمون اســـتفزازية، وذلك لتضمن العرض المسرحي مشاهداً لقطع رأس الرسول ﷺ وسيدنا عيسى عليه السلام، وهو عرض يقوم على الفكر الإلحادي الذي يعتمـــد

(٢٢٦) العهد القديم، سفر الملوك (٢٢:١٠)، كما في قاموس الكتاب المقدس ص(٤٨٢).

هنا على عبارة نيتشة الفلسفية الشهيرة: "إن الله قد مات"! التي أراد أن يجعلها عنواناً لفلسفته التي لا تعترف إلا بالحسيات[227].

وأذكِّر أهل هذه الإشاعة بموقف المسلمين من فيلم المسيح الذي قام به بعض اليهود، فقد هبَّ المسلمون في الرد على ذلك الفعل الشنيع، ومنعوا من نشره في العالم الإسلامي.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

---

(٢٢٧) ينظر مجلة التوحيد ص(٨و٩) مقالة بعنوان: اشتداد الحملة المسعورة على نبي الإسلام. إعداد رئيس التحرير للمجلة – جمال سعد حاتم.

المصادر والمراجع

- آراء المستشرقين حول القرآن والتفسير، د.عمر إبراهيم رضوان، رسالة دكتوراه من جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض ١٤١٠هـ، مطبوعة بالحاسوب.
- الاستشراق في السيرة النبوية، عبد الله محمد النعيم، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط١، ١٤١٧هـ.
- الإسلام في المناهج الغربية المعاصرة، د.محمد وقيع الله أحمد، طبعة جائزة الأمير نايف بن عبد العزيز العالمية، ط١، ١٤٢٧هـ.
- الإسلام والمسيحية د.إليسكي جورافيسكي، كتاب رقم ٢١٥ من سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، نوفمبر١٩٩٦م
- الاهتمام بالسيرة النبوية باللغة الإنكليزية، أ.د.محمد مهر علي
- الاهتمام بالسيرة النبوية باللغة الفرنسية، د.حسن إدريس عزوزي، هذه البحوث مقدمة لندوة عناية المملكة العربية السعودية بالسنة النبوية، والتي أقيمت في مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف في الفترة ١٥-١٤٢٥/٣/١٧هـ.
- تراث الإسلام، تأليف جمهرة من المستشرقين بإشراف سير توماس أرنولد، تعريب وتعليق جرجيس فتح الله، دار الطليعة، بيروت، ط٢، ١٩٧٢م.

- الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، آدم متز، ترجمة محمد عبدالهادي أبو ريدة، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ط٣، ١٩٧٥م.
- حضارة العرب، كوستاف لوبون، ترجمة عادل زعيتر، دار إحيـــاء الكتب العربية، القاهرة، ط٣.
- الحوار المسيحي الإسلامي استناداً إلى تصورات المســيحية عـــن المسلمين، للباحثة دعاء محمود فينو، والمنشور في مجلـــة إســـلامية المعرفة، العدد ٤٤، ربيع ١٤٢٧هـــ/٢٠٠٦م
- حياة محمد، واشنجتون إيرفنج، ترجمة علي حسين الخربوطلي، دار المعارف، القاهرة، ط٢، ١٩٦٢م.
- الدراسات العربية والإسلامية في الجامعات الألمانية، رودي بـــارت (المستشرقون الألمان منذ تيودور نولدكه)، ترجمة د.مصطفى ماهر، دار الكاتب العربي، القاهرة، ١٩٦٧م.
- الدعوة إلى الإسلام، سير توماس أرنولد، بحث في تـــاريخ نشـــر العقيدة الإسلامية، ترجمة وتعليق د.حسن إبراهيم حسن ورفاقـــه، الطبعة الثالثة، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٧١م.
- دفاع عن الإسلام، لورافيشيا فاغليري، ترجمة منير البعلبكـــي، دار العلم للملايين، بيروت، ط٣، ١٩٧٦م.
- رجال ونساء أسلموا، عرفات كامل العشّي، دار القلم، الكويـــت ١٩٧٣-١٩٨٣م.

- السنن الكبرى - للإمام البيهقي ومعه الجوهر النقي - للعلامة المارديني - تحقيق عبد القادر عطا - طبعة دار الفكر.
- صحيفةماينتشي Mainchi اليابانية. بتاريخ ١٦/١٠/٢٠٠٦م.
- قالوا عن الإسلام، د. عماد الدين خليل، الندوة العالمية للشباب الإسلامي الرياض ط١، ١٤١٢هـ.
- قاموس الكتاب المقدس، تأليف نخبة من أساتذة اللاهوت، دار الثقافة، القاهرة، ط٨.
- القرآن الكريم والعلم العصري، موريس بوكاي، ترجمة فودي سوربيا كمارا، دار المآثر، المدينة النبوية، ط١، ١٤٢٠هـ.
- مجلة التوحيد، مجلة إسلامية شهرية تصدر عن جماعة أنصار السنة المحمدية بالقاهرة، العدد٤١٨، شوال١٤٢٧هـ.
- محمد في مكة، مونتكمري وات، تعريب شعبان بركات، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت.
- مختصر دراسة التاريخ، أرنولد توينبي، ترجمة فؤاد محمد شبل، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٩٦٠-١٩٦٥م.
- المستشرقون، نجيب العقيقي، دار المعارف، القاهرة، ط٣، ١٩٦٤-١٩٦٥م.
- المستشرقون والسيرة النبوية، عماد الدين خليل، بحث مقارن في منهج المستشرق البريطاني المعاصر، مونتكمري وات، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس، ١٩٨٥م.

- مسند الإمام أحمد بن حنبل، بتحقيق شعيب الأرناؤوط ومجموعة من العلماء، إشراف معالي الأستاذ الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٤٢١هـ.
- من أجل معرفة العبادة والحب، بحث مقدم لندوة بناء المناهج: الأسس والمنطلقات بكلية التربية- جامعة الملك سعود- الرياض سنة ١٤٢٤هـ.
- مناهج المستشرقين في الدراسات العربية والإسلامية، مكتب التربية العربي لدول الخليج، الرياض ١٤٠٥هـ.
- مؤتمرات المستشرقين العالمية د عبد المحسن بن علي سويسي – رسالة دكتوراه – جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية – كلية الدعوة قسم الاستشراق بالمدينة المنورة.
- موسوعة المستشرقين، للدكتور عبد الرحمن بدوي، دار العلم للملايين، بيروت، ط١، ١٩٨٤م.
- نصرة الله تعالى نبيه محمد ﷺ، للدكتورة حنان بنت بنية الجهني. كلية الآداب جامعة طيبة.

فهرس الموضوعات